

المديح

فنون الأدب العربي

الفن القِصَّائِي

٤

المِزِج

بقلم

سَامِي الذَّهَّان

الطبعة الخامسة



دارالمخارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الممدوح فنّ الثناء والإكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك ، وسياسة الوزراء ، وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض ازوايا ، وأضاف إلى التاريخ - صادقاً أو كاذباً - ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه . وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، وأغفل زللاء لم كانوا أحقّ بالذكر وأجدر بالشهرة ؛ ولكنها الحظوظ يوزعها الشعراء ؛ فينال الثناء بعضاً ويحرم بعضاً ؛ كما قال يزيد الحارثي :

وإذالقى الحمّام رأيتَه لولا الثناء كأنه لم يولد

ولذلك كان المديح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير في اقتضاب إلى الأحداث ولا تسهب في تعليلها ؛ شأن الشعر دائماً ، وقد تكون فيها دعاوة وحزبية وشطط وإسراف ؛ ويكون فيها حقّ وصدق وإنصاف ؛ لذلك يجب أن نقف منها موقف النقد والشك والتأمّين ؛ كما نقف من كتب التاريخ سواء بسواء .

وسبب ذلك أن الشعر كثيراً ما تغلب عليه العاطفة والخيال ؛ وتدفع إليه الإقطاعات والهدايا والأموال ؛ أو تسوقه السياسة والعصبية والمذهب والدين ؛ والخوف والبطش والرغبة والرهبة ؛ يُقال في ظروف خاصة وفي ساعات معينة ؛

يروج بعدها في الأسماع والقلوب ، ويتمكن من مشاعر الناس ، ويسير فيها في يسر ولذة لا تتاحان للتاريخ والمنطق والفلسفة .

وقد كان همّ المادحين في أكثر مدائحهم لارؤساء والحكام أن يمسّموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يخترعوها ويلصقوها بالمدوحين ليربحوا في حلبة المديح ، وليرفعوا لواء المدوح بين الناس ، فلعلمهم في ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا ، ترى الخير كل الخير عند زعمائها ورؤسائها وقادتها ؛ أو لعلمهم كالرسامين المصورين يستطيعون أن يظهرُوا أجمل ما في الوجوه وأحسن ما في المشاهد ، فيصورون من جانب واحد ، هو جانب الجمال والحسن ، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة تصحح وتلون وتبدع ، وتسلط الأنوار والظلال ، وتتلاعب بها ؛ فالمدح في هذا على عكس الهجاء . وقد استعرضنا ما كان للعرب في هذا الباب فرأيناه كثيراً ضخماً منذ الجاهلية حتى اليوم ، يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتلّ موقعاً هاماً ، لأنه يعنى ، فيما يعنى به ، بوصف الرجال وامتداح مزاياهم ، والتحبيب إليهم والتقريب إلى مقامهم بأحسن أسلوب وأبرع صورة .

والمدح كثير الأنواع لا يكاد يحصره تقسيم أو تبويب ، ولا يوفيه كتاب صغير ؛ ولكننا ننشئ للشادين ، فنكتفي بغيض من فيض ؛ ونعرض منه نماذج في مديح الخلفاء والملوك ، ومن أعانهم من أمراء ووزراء ، وقواد ووجهاء ، ومن لمع في الأقطار من علماء وأدباء ، وما كان من المديح الدينية ، والإشادة بفضائل النبي الكريم ، والثناء على أهل بيته والدعوة لهم في الخلافة والحكم ، وما وقع في مديح الأوطان والبلدان والمديح السياسي عامة ، لعلنا نتعرف إلى المثل العليا التي كان يعجب بها شعراؤنا على اختلاف العصور والأوطان .

ونحن لا ندعى الإحاطة والشمول ، فإنها محاولة أولية في باب جديد من أبواب التصنيف والتأليف ، جعلناه في صفحات يسيرة وأسلوب مبسط ، ليكون قريباً من الأذهان لطيف المتناول ، نافعاً على إيجازه . والله من وراء القصد

تمهيد

١

المديح في الآداب العالمية :

منذ فجر التاريخ أحس الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان ، وشعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس ، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع ، لذلك سعى إلى رضا مَنْ هم فوقه ، وتجميل حياتهم بالقول ، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد ، فكانت أقواله تعبر عن المديح . وسواء أكان هذا المديح صادراً عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه ، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والقوة والفهم والذكاء . فهو يشترك مع الناس جميعاً في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغنى والسيد والأمير نظرة خاصة ، ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء حين يعرض له القول أو يتصدى للحديث والبيان شعراً ونثراً .

ولسنا ندري كيف كانت أوائل المديح عند الإنسان الأول ، فقد غابت جذورها مع ظلمات التاريخ . وبقي شيء يسير على الأحجار القديمة تحمل في صفحاتها حمداً وثناء لبعض الأمم ، تشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم ، وتمنحهم صفات وألقاباً ونعوتاً تسمى في عرف الأدب بالمديح . وأوراق البردى والمسلات والأهرام والقبور تنقل إلينا صيغاً كثيرة لهذا المديح اكتشفت على شطآن النيل وفي صحارى مصر وقصور بابل وتمائيل اليونان والرومان ومعابد الهند والصين لا تختلف في عباراتها عن إعلاء شأن الممدوح من بيان شجاعته وسطوته وسيطرته وقوته وذكائه وعظيم فهمه وعلمه .

وسواء أكانت هذه المذائح على ألياف الخيزران أم نسيج الحرير أم أوراق النبات أم الأحجار ، فهي تعبر عن نظرة الاحترام ، فقد نشأ الإنسان في الطبيعة على خوف من القوة واليبأس والبطش والهول ، لذلك يجد البحر والنهر والرعد والثور والفييل والأسد والمطر والشمس والقمر والنار والهواء والجبل وغيرها ، فقال عبارات المديح وتوجه بها إلى هذه القوى خاضعاً خاشعاً معجباً . فلما أحس بوجود الإله خضع لجلاله وانحنى أمام سيطرته ربأسه . فجعل لكل شيء إلهاً أول الأمر ، ثم توجه إلى الآلهة بصلواته وعبادته ، وهذه الصلوات والدعوات إن هي إلا مديح وتضرع سواء أكانت في التمشع أم التماس الخلاص من مرض أو خطر ، أم كانت مجرد عبادة خالصة وإحساس عميق .

وفي جدران المعابد بمصر اكتشف العلماء « كتاب الموتى » ، وقرءوا فيه من الدعوات والعبادات ما يفيدنا في فهم أديهم ومديحهم ، ومنها : « السلام عليك أيها الإله الأعظم ، جئتك يا إلهي متحلياً بالحق متخلياً عن الباطل ، فلم أظلم أحداً ، ولم أسلك سبيل الضالين لم أحنث في يمين ، ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي ، ولم تمتد يدي لما لغيري ، لم أقل كذباً ، ولم أكن لله عاصياً ، ولم أسع في إيقاع بعبد عند سيده » .

وفي هذا الدعاء اعتراف بإله الحق ، وخشوع له وخضوع لجلاله ، وفيه نظرة القدهاء إلى الرجل الصالح في الدنيا ممن يستحق الثواب ، فهو من لا يظلم ولا يحنث ولا يبدع ولا يسرق ولا يكذب ولا يخالف الوعد ، وهي صفات ظلت على الزمان موضع المدح منذ عهد المصريين إلى اليوم ، لم تتغير ولم تتبدل ، فالفضائل هي الفضائل والمزايا هي المزايا .

وفي الأدب المصري هذا ، اكتشف العلماء كذلك على ورق البردي شكاوى الفلاح وقد توجه إلى سيده بقوله : « يا سيدي يا عظيم العظمة ! يا أغني الأغنياء ! . . . ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم ، وغني أغني . . . إن لسانك لسان الميزان وقلبك وشفقتك ذراعاه ، فإذا لم تعدل فن يكبح الشر ؟ . . . يا أيها

المدبر العظيم ، لا تحرم من فقيراً مثلي من ملكه قال الفقير نفسه ، ومن اغتصبه كتم نفسه » . وفي هذا القول من الخضوع والخنوع ما يشبه أقوال كثيرين عاشوا بعد هذا الفلاح عدة قرون يستجدون الملوك والأمراء والزعماء بمدح يشبه هذه الصيغة كأن الزمان لم يتغير ، أو كأن المعاني لم تتبدل .

وفي الآداب الصينية والهندية مثل ما كان عند الأمة المصرية القديمة من نظر إلى الزعيم الكبير والإنسان الكامل والمثل الرفيع ، تجدها في كتبهم الدينية وملاحمهم التاريخية ، مثل كتاب كونفوشيوس أو «هاها بهارتا» أو «اميانا» . ويسيطر على كثير من صفحاتها روح الإكبار والاحترام وتعابير المدح والتقدير . وكان في الأدب الفارسي القديم ما لآداب الصين والهند من روعة الحب والاحترام ، فقد آمن «زرادشت» في كتابه «الأفستا» بإله واحد عظيم ، وسطر لقومه صفات الرجل الكامل ، وبين الصلاح والنسب والخير والشر ، ونهى عن الاعتزاز بالحسب والنسب ، وإنما ساق الشعب إلى العمل والجد .

وفي التوراة والتلمود خشوع وخضوع لملك الملوك ، ودعوة كذلك إلى تقديس البطولة وإكبار الزعامة ، وقصص كثير عن الأقباء . وفيها صلوات لإله البشر . وفي مزامير داود صلاة توجه إلى الله هذا بعضها : « أنت مالك كل أمرى ، لأنك واضع يديك في بطن أمي ، أحمدك وأشكرك فقد أتيت بالأعاجيب في خلقي ، كونت عظامي في الخفاء ، وصنعتني على عينك وقدرت أهورى في كتابك . . . أنا لا أحصى نعمك فهي أكثر عدداً من الرمل » . وهذا مدح ديني اقتبس منه المادحون والشعراء صوراً وتعابير تراها في ثنايا الكتاب .

وفي الآداب اليونانية أساطير تشبه ما جاء عن أمم الأرض في أساطيرها فهي تعد الآلهة قوى عظيمة سحرية تعدو حدود العقل والخيال معاً ، وتقص سير الحروب وانتصارات الأبطال ، وتمجد الشجاعة والبطولة والخلق الراجح وتشيد بالخير والعدل والحق ، وقد خلف القوم ملاحم كبيرة كما خلف الهنود والفرس ، فاشتهرت الإلياذة والأوديسة بوصفهما للمعارك والحجازر ، وإبداعهما

في رسم الجيوش المحاربة حتى لقد قصرت عنها الأمم في ذلك ، فوصفت الإلياذة أتباع « أخيل » في الحرب فشبّتهم بذئاب في قلوبها بأس شديد عادت بعد أن نهشت وعلاً وفي أنيابها بقية من دماء ، ثم ازدحمت على الماء لترتوي ، فلما امتلأت بطونها وقفت تنفث الرعب ، قال هوميروس : « لو رأيت هذه الذئاب فقد رأيت رجال أخيل العظيم قوة ومظهراً حين دعاهم الداعي لهذا القتال الخفيف » .

وهذا مديح لأخيل ورجاله في الإلياذة تقع على مثله في الأوديسية وفي الشعر الشعبي للإغريق ونثرهم وأناشيدهم ومسرحياتهم ، فيه المثل العليا كالشرف وسمو الخلق والبطولة والكرم ، وتلمح له شبيهاً كذلك عند الرومان ولاحقهم اللاتينية ، فقد وصفوا المعارك والحروب والأبطال والشجعان ، وامتدحوا مواقفهم المثيرة ، ومزجوا ذلك بإشراك عناصر الطبيعة ، ورسموا ما كان يثير الخوف منها ، وبسطوا موقف الفرسان من حرب الإنسان والطبيعة .

ولما كان القرن الخامس عشر للميلاد في الغرب ، قام الإنكليز برسم الرجال وامتداح الأبطال ، ونهض الفرنسيون في الجنوب يشدون المديح على لسان شعراء التروبادور ، وهم من طبقة الفرسان والسادة الأشراف ، وقد قلدوا في كثير من المديح شعراء الأندلس من العرب ، فصوروا البطولة والشجاعة والكرم . ونشأ كذلك في شمالي فرنسا شعراء المغامرة يرسمون البسالة ويصفون الشجاعة في ملاحم قوية فيها أمجاد الرجال وكرم الأخلاق . ولم تتخلف ألمانيا عن فرنسا وإنكلترا وأسبانيا في هذا الميدان ، وإنما نظمت في مديح الأبطال وسير الزعماء والقواد والملوك ما يشبه الإلياذة والأوديسية .

وظل أدباء الغرب ينسجون على منوال أجدادهم في الأساطير ورسم الأبطال حتى كثرت المسرحيات والدواوين في مديح الزعماء والملوك والقواد والكتاب ، مما يطول بيانه وحصره والتعرض له في هذه الصفحات القليلة ، فقد أحيوا مسرحيات القدماء من اليونان والرومان ، وأعادوا قصص الفرس والهند ، فوصفوا البطولة والشجاعة ، واستفادوا من أشخاص التوراة ومعارك الأمم القديمة وقوادها ، فكانوا في المديح كما كان أولئك ، ولكنهم برزوا في المديح

القوي مما نسميه « الحماسة » ولها كتاب غير هذا يعرض لهم ويفصل الأمر فيهم .

المديح في الأدب العربي :

بسطنا ما كان للأمم القديمة في الشرق والغرب من أدب في المديح ، ورسمنا في عرض سريع تقديس الآلهة وتكريم العظماء وإكبار الزعماء والملوك والقواد والعلماء ؛ وذكرنا ما كان منها خالصاً للدين وما كان منها للدنيا ، ورأينا أن الأمم جميعاً تشترك في خطب الود عند الأقوياء وإظهار أياديهم وصفاتهم ، وما لهم من خلق رفيع وشجاعة نادرة وتفوق كبير . وسننظر الآن إلى العرب كيف كانوا يرون الصفات المثلى والفضائل البارزة في ممدوحهم ، وون أين يأتيهم الإعجاب ويبلغهم التقدير ليرسموا مديحهم وإعجابهم وتقديرهم في قصائدهم .

لقد قامت في قبائل العرب حروب واستعرت بينهم وبين جيرانهم معارك ، فثارت حرب البسوس قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن ، وأناثا شعر كثير نسب إليها ، وقيل فيها ؛ وجاءتنا كذلك أشعار أيامهم وما كان من مديح لأبطالهم وزعمائهم ، فقد كانت حياتهم تسود رئيساً وتملك زعيماً وترفع قائداً . وكانت الأديان المختلفة عندهم تبعث على العقيدة بوجود إله يذكرونه في شعرهم ويتوجهون إليه ضارعين خاشعين ، فكانت الأسباب إذاً متوافرة لخلق المديح ، وكانت الموضوعات متمسرة في المديح الدينية والسياسية والاجتماعية كما توافرت عند غيرهم من الأمم ، ولكنها زادت عندهم بسبب الفقر المدقع في هذه الصحراء القاحلة ونضوب موارد الرزق وفقد الصناعات ، وندرة البساتين والعياض ، وشح المياه ؛ فكثر المحتاجون وقل الأغنياء وعم الدهماء نظرة خاصة إلى الإحسان والرفق والعون وحماية الجار لا نراها عند غيرهم من الأمم بمثل القوة التي استولت على نفوسهم ، لذلك كثر القتال في سبيل الحياة ، وتنوعت أساليب البطولة والبسالة من خروج في القفر ، وصراع لوحش البر ، وقتال للأعداء والمغيرين واللصوص . وسارت في القبائل سيرة الكرماء والأجواد والسادة الزعماء والوجهاء

والمصلحين . فلما رحلوا قبل البعثة المحمدية إلى الشام وأطراف العراق رأوا عند إخوانهم ملوك العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعم ، فعاش شعراؤهم على مقربة من هؤلاء الأمراء يتناولون من هداياهم ويتناولون بشعرهم عطاياهم وجوائزهم فكان مديح الملوك ، وكان المديح السياسي على شكل قبلي ينتصرون للخصاسة حيناً وللمناذرة حيناً ، ويضيفون بذلك إلى ديوان المديح قصائد خالدة من غرر الشعر . وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب في أتباعه ، ووقف فريق معه وفريق راح يناضله ؛ فنشأ شعر ديني إسلامي في المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرسول ، ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الحارقة ويبشر بالدين الجديد فيمدح زياياه ؛ ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين بعده على مدى القرون في امتداح الإسلام والنبي الكريم . ولما كان الفتح وانتقل المسلمون إلى الشام نقلوا عصبيتهم وزوعاتهم القبلية فانصرفوا إلى حروب مذهبية ودينية وسياسية ، وأكثروا فيها من ذكر الأبطال والقواد والملوك والأمراء ، وغذاهم خلفاء الأمويين بالذهب فانبسطت رقعة المديح السياسي والاجتماعي والديني . ولما انتقلوا إلى العراق كثر هذا المديح وتنوع ؛ فدخل الترف وولدت طبقة ناعمة غنية وطبقات متوسطة تعيش بقربها وتستفيد من جوارها ونعمها ، وطبقة بائسة لا تصل إليها ولا تبلغ مجالسها ، فتمدح من فوقها وتثنى على من ينعم عليها ؛ أو تتحرق بمديح لعله يبلغ إلى المسامح والآذان ، وكان الشعراء في الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حيناً وبالمذاهب الدينية والاجتماعية أحياناً ، وتثنى إلى ذلك على القواد والعلماء والوجهاء .

وتفرقت بعد ذلك دول الإسلام شيعاً ، وتقسّم الملوك مناطق العالم الإسلامي ، فازدادت موارد الرزق أمام الشعراء وفتحت أبواب المديح لكثير منهم ، فزادت الوظائف — كما نقول اليوم — وأصبح لكل شاعر أن يطمح في أن يسافر إلى أمير يكفيه ، أو ملك يديه ، أو قائد يحميه . وامتلأت دواوين المديح بقصائد طويلة ، اخترع الشعراء فيها حيناً ووقف خيالهم أحياناً ، فقد ألم إخوانهم قبلهم بكثير من المعاني ؛ وضائق سبل الاختراع فأعادوا الصور

والتراكيب ، وتضاءلت ينباع المديح وخفت معينه ، فلن يرتوى الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، ولذلك ألحوا على القديم وبدلوا في مبانيه وصوره ، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسى للإسلام فى ظلمات داجية . فلما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ فى مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً إلى قصور القاهرة ، أو يترددون حول الوجهاء والازعماء والعلماء ، أو يطرقون أبواباً جديدة فى امتداح البلدان والأوطان ، وما زالوا كذلك إلى اليوم ؛ وسيظلون كذلك فى الأقطار العربية ، ما دام الشعر وحده لا يروج إلا عند ذى سلطان أو ينفق عند ذى وجهة ومكانة ، فهو اليوم كما كان من قبل وساطة للمال والرفعة والشهرة ، يقوم عند صاحبه مقام الأسرة والقوة والشهادة العلمية ، لذلك جعله كثير من الشعراء سبيلاً لمكانة سياسية أو نيل كرسي فى الحكم . فالآذان ما تزال سليمة تقود المديح وتكبر الشعر المتين ، وتعرف أن خيبة الشاعر فى مديحه تدفعه إلى لون آخر من الشعر هو الهجاء ، وهناك الطامة الكبرى والتشهير أو الفضيحة ، والعاقل من ابتعد عن لسان الشر أو اشترى الحمد والثناء والمديح . وسنبسط ألوان المديح فى الأدب العربى كما تقاب على العصور الأدبية كلها ، ناظرين إلى نوعه فى تصنيف جديد ، نعه محاولة فى تقسيم أبواب المديح ، آملين أن لا نجانب الصواب فى فهمه وعرضه وتحليله ، لعلنا نبليغ الفائدة المرجوة من كتب هذه السلسلة التى تهدف إلى البساطة والبسر فى الإحاطة بفنون الأدب العربى ، من غير أن تفوتها الدقة والعمق فى البحث والدراسة . ونحن نبدأ بمديح الملوك والخلفاء لأنه أكثر الشعر كمية وعدداً فى ديوان العرب ، ثم نتبعه بمديح الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء ، ونتقبل بعده إلى المديح الدينى فالسياسى ، حتى نصل إلى نهاية المطاف . وهما أن نثير المشاكل ونكثر من الافتراض وطرح الأسئلة ، لعل شبابنا يتساءلون فى كل ما يقرءون عن الأسباب والدوافع والنتائج ؛ فتكون قراءتهم نافعة عميقة مفيدة لذيدة .

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم في التمهيد ؛ لذلك أننى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين وأقواد العظماء والرؤساء المسودين ، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم ، ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يهبر الطرف ويسحر اللب ؛ وقد رأى بأم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرّك لسانه بالإعجاب . ولعل العربي تأثر أول الأمر بنظرة الفرس والروم إلى ملوكهم ، فقد كانت الأمتان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ إلى قصور الملوك والأدراء ، وكان اللخميون في العراق والغساسنة في الشام يتأثرون ما وسعهم هاتين الأمتين بالمظاهر والمفاخر ، ويقلدون مراسمهم وأعيادهم تقليداً يثير إعجاب القادم من الصحراء ، ويسيل لعابه وبضطره إلى الحديث والفخر والمدح . ونسارع إلى القول بأن الإسلام سعى إلى محو هذه النظرة ، فقام الخلفاء الراشدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطي ، وقلدهم بعض الخلفاء ، لكن أكثرهم عاد إلى النظرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبذمهم في بعض الأحيان بالمظاهر والمراسم ، كما أحيى النظرة القبلية في السياسة والوراثة والحكم ؛ وقال الشعراء المداحون في الإشادة بهذا كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر . ففي الجاهلية قام النابعة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق ، فرأى صور الأبهة والترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور

تعبّر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لسنادتها ، فإنهم ملوك ولكنهم مع ذلك إخوان كرماء يحكمون العربي الشقيق الضيف في أنوالهم ، ويقربونه في ضيافتهم فيشعر أنه رب المنزل وأنه انتقل من أهل إلى أهل على ما بين الحجاز والشام من فرق واختلاف .

ولقد دهش النابغة لما رأى فتخيل أن البناء هناك من صنع الجن ، فعيناه لم تشهدا قبل « تدمر » أعمدة صاعدة إلى السماء وعمارة شامخة إلى العلاء كما شهدتا خلال الزيارة ، لذلك رأى للنعمان فضلا على الناس كلهم ، وجعل له الطاعة والحب ، واعترف بأنه يهب المائة الأبيكار ، فلما أراد أن يصف جوده امتدحه بأنه أشد من سيل الفرات حين تمده الأودية فيزجر ويخيف :

فما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ له تَرى غَوَارِبُهُ العبرينَ بالزَّبَدِ (١)
 يمدُّه كلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لَجِبٍ فيه ركامٌ من الينبوتِ والخضدِ (٢)
 يظلُّ منْ خوْفِهِ المَلأحُ مُعْتَصِماً بالخيزرانةِ بَعْدَ الأَيْنِ والنجدِ (٣)
 يوماً بأجودَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ ولا يحولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دونَ غَدِ (٤)

فأنت ترى هذه الصورة الجليلة التي صنعها النابغة ليرسم كرم النعمان إذ رسم الفرات في أكمل ما يكون امتلاء ، فإذا عصفت به الرياح هاجت أمواجه وزادتها هيجاناً بما يترامى إليها من ركام الشجر حتى ليخاف الملاح الماهر ، فلا يستطيع تسيير سفينته إلا بحذر بالغ ، فيعتصم بذنب السفينة ويلقى في سبيل ذلك عناء وعتناً قويين . وكل هذا ليقول إن جود النعمان كالنهر بل هو

(١) الغوارب : الأعالي من الماء والأمواج .

(٢) الركام : الحطام المتكاثف - الينبوت : شجر الخشخاش ، وما تخضد : أي تكسر .

من الأشجار - يمد ماؤه : أي يملو .

(٣) الخيزرانة : ذنب السفينة - الأين : الفتور والإعياء - النجد : العرق والكرب .

(٤) النافلة : الزيادة في العطاء - يحول : يمنع .

أشد من نهر الفرات وأقرب إلى البحر في هديره وأمواجه وعنفه وقوته . وهذه الصورة الشعرية تقلب عليها الشعراء في المديح ورسم الكرم والجود والاعطاء ، فبعضهم قلدها ، وبعض أضاف إليها ، فلم يخرج كثير منهم عن تشبيه الكرم بالبحر والجود بالموج المزبد .

وقد طلع علينا النابغة بصور كثيرة للمديح ، فاتخذ سبيله إلى تشبيه مليكه بالليل الذي يدركه أنى كان ، وشبهه بالربيع المنعش كذلك :

وَأَنْتَ رَيْبٌ يَنْعَشُ النَّاسَ سَيْبُهُ وَسَيْفٌ أَعْيَرْتُهُ الْمَنِيَةَ قَاطِعُ
أَبَى اللَّهِ إِلَّا عَدْلَهُ وَوَفَاءَهُ فَلَا النُّكْرَ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعُرْفَ ضَائِعٌ^(١)
فالنعمان ربيع يقبل بالجمال والزهرة والنور والبركة والنثر ، فهو خير كاه وهو مع ذلك مخيف لأعدائه كسيف قاطع أعارته المنية حدتها الباتر . والشاعر يقول بأن العرف لا يضيع بين الله والناس .

واستعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه ، فشبّه بالشمس بين الكواكب لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم فقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(٢)
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَاكِبٌ

وهكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمى حين يتطلعون إلى الملوك ، فقال في مليكه إنه بحر طامى الجود ، وإنه ليل يبسط رداه على الوجود ، وإنه شمس بين الكواكب ، وإنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى ، وإنه سيف بتار مهيب . ولذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف في المديح . ورأى فيه بعضهم صحافياً لعصره يُعبر قلمه لكل من يجود عليه أو يحمى حماه ،

(١) النكر : المنكر - العرف : المعروف .

(٢) سورة : منزلة وتنشيطاً ، وى : صورة - يتذبذب : يضطرب .

أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمدحجه ويصوره في احترام وحب وخوف وفخامة ؛ ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك . وبذلك يختلف عن زلائه الجاهليين كأمريئ القيسن والمهلل وغيرهما حين قالوا المديح عن حب عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم ولم يحترفوا بمدحهم . وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق في الأدب العربي ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الأرسقراطي ، لأنه يحيط الملوك وخدمهم بالدعاية والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناية ، فلا يعيرهم مكاناً من المديح ولا يلفت النظر إلى أعمالهم ، فكأن الدنيا تعيش لهم وبهم ؛ أو كأنهم يملكون كل شيء في الأمة لا يذكر إلى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ؛ ويبدو أن هذه النظرة قد تبدلت قليلاً خلال عصورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم موضعاً للمديح والإطراء ، أو خيل إليهم أن ذلك قد وقع فاستحقوا المديح .

والأعشى سار على سنن التابغة في المديح ، ولكنه انحط إلى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى ، وشكر كل من أكرم ؛ فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمي ، وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرْعُ ع ، وَحَمَلٌ لِمَضْلَعِ الْأَثْقَالِ (١)

وصلات الأرحام قد علم النا س وفك الأسرى من الأغلال

وهو أن النَّفْسَ الْعَزِيزَةَ لِلذِّكْرِ ر إذا ما التقت صدور العوالى

وعطاء إذا سألت إذا العذ رة كانت عطية البخال (٢)

(١) التقى : الحذر - أسا الجرح : داواه = الصرع : داء يبطل الحس ويمنع الحركة ،

وهو التيه والكبر .

(٢) العذرة : الملعنة .

ووفاءً إذا أجرت فما غرَّت حبالٌ وصلتها بحبال^(١)
 أَرِيحِي صلتٌ يظللُّه لَقَوٌ مُمُّ رَكودًا قيامهم للهِلال^(٢)
 فالمدوح يجمع بين الصفات المثلث التي يحبها العربي ، يصل الرحم ويفك
 الأسير العاني ، ويهين نفسه في سبيل المجد وطيب الذكر إذا تصاولت الرياح
 وعلا الغبار ، ويجير إذا انقطع الخيل بالفقير المستغيث ؛ وهو قوي يسكن له الناس
 كأنهم ينظرون إلى الهلال . فالأعشى ذكر الشجاعة والكرم في مدحه للأسود
 وأطال في مدحه وفصل حتى أدان له الرقاب ، وجعله يغرزو كل عام ، ويصل
 الخيل بالخيال ، ويتدفق على حومة الوغى ، ويسقى الكتائب من كأس هجومه
 ويجير المستجير ؛ فهو في هجماته يذهل الشيخ عن بنيه ، ويشرد الإبل
 فتوغل في الرمال ويملك النواصي في القتال ، ويواصل الحرب شتاء وربيعاً ،
 فيبعث الذل في الأعداء ، ويعيد المجد إلى الأصدقاء ، ويحمل لواء الظفر والنصر .
 ومدح حسان بن ثابت ملوك الغساسنة وأمراءهم ، ووصف نعيمهم وترفهم ،
 ورسم ما كانوا يلبسون ويرتدون ، وذكر ديارهم العامرة بالكرم والجمال ، فقال فيهم :
 يَمَشُّونَ فِي الْحَلَلِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهَا مَشَى الْجَمَالِ إِلَى الْجَمَالِ الْبُرْلِ^(٣)
 أولاد « جَفَنَةَ » عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ^(٤)
 يُغَشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(٥)
 يَمْتَقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ « بَرْدَى » يَصْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٦)

(١) جبل غرر : غير موثوق به .

(٢) الأريحية : الارتياح لفعل التلى والجد - صلت : ماض - ركود : لا يتحركون .

(٣) الحلل : ج حلة وهي الرداء - البرل : ج بازل وهو البعير إذا استكمل الثامنة وطن

في التاسعة .

(٤) جفنة : أبو ملوك غسان في الشام .

(٥) يغشون : لا تخلو منازلهم من الأضياف .

(٦) البريص : نهر بدمشق ، وبردى نهر آخر فيها - يصفق : يمزج - الرحيق :

الحمر البيضاء - السلسل : اللينة .

فهم يمشون في ثياب مضاعفة النسيج ، وهم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب ، لا ينتجعون ولا يبتخفون إلى مكان آخر ، ومنازلهم مفتوحة للأضياف والطراق والعفاة حتى لتأنس كلابهم بالقصاد فلا تهرّ على أحد ، لا يسألون مَنْ يقبل عليهم أو يؤم ديارهم ، فهم في خفض من العيش يستضيفون كل من يمرّ بساحتهم . ومثله الخطيئة ، فقد مدح عمر بن الخطاب طمعاً في عدالته ورجاء بقضاء حاجة يطلبها، فرأى فيه أمين الخليفة بعد الرسول وأوفى قريش جميعاً وأطولهم في الندى بسطة ، وأفضلهم فعلاً .

وأما الأخطل ، فقد كان شاعر الخلفاء ، وشاعر بني أمية كلها ، مدحهم واستدّر جودهم وعطفهم وحبهم ، وكان يبدأ مدحهم بالأسلوب القديم على عادة أقرانه ، ثم ينتقل منه إلى الممدوح فيقول في الخليفة عبد الملك بن مروان :

الخائضُ الغمرُ والميمونُ طائرهُ	خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ ^(١)
ومَا الفراتُ إذا جاشتْ حوالبهُ	في حافتيه وفي أوساطه العُشْرُ
ودَغْدَغَتْه رِيحُ الصَّيْفِ واضطربتْ	فوق الجأجي من آذيه غُدرُ ^(٢)
مُسْحَنَفْرٌ من جبال الروم يستره	منها أكافيف فيها دونه زورُ ^(٣)
يَوْمًا بأجودَ مِنْهُ حينَ تسألُه	ولا بأجهرَ مِنْهُ حينَ يَجْتَهْرُ ^(٤)

فالخليفة شجاع يخوض الحرب ، ميمون النقية ؛ وهو في كرهه أشد سعة من الفرات إذا جاشت أمواجه واصطفقت أواذيه ، وسقط منحدرًا من جبال الروم في سرعة وهول . وهذه الصورة تذكرنا بما قال النابغة في الفرات حين

(١) الغمر : الماء الكثير .

(٢) دغدغته : فرقه - آذى : موج - جأجي : صدور - غدر : ج غدير .

(٣) المسحنفر : السريع الجري - أكافيف : مناكب - زور : ميل .

(٤) الجهير : الرجل الرائع الجسم .

وصف الجود عند مليكه . ويسير الأخطل بعد هذا في وصف الشجاعة والكرم فشبهه بالليث يتقدم مائتي ألف من الجنود ، لا يشبههم إنس ولا جنان ، فيغشى الوغى بنفس لا تهاب ، ويهدم الأسوار والقناطر ، فلا تقفه حدود ولا سدود ، لأنه من قریش وقریش سادة العرب في الذروة من الخلق الكريم والجود الواسع والبطولة النادرة . وهو حين مدح يزيد بن معاوية والوليد قال فيهما مثل ما قال في عبد الملك ، فهو خليفة يستسقى بستته الغيث ، شديد الهيبة ، عظيم البأس ، أسقاه على ظمأ ولم يحرم سائله ، فياض العطاء .

والفرزدق مدح خلفاء بني أمية ، ورأى قوتهم في الخلافة ، وأعجب بشجاعتهم فهم أبطال منصورون وكرماء مشهورون ، فقال في هشام بن عبد الملك يرجو الندى على يديه :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيقَةٍ أُمَّةٍ إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ بَعْدَ نَوَاءِ جَنُوبِهَا (١)
 فَهَبْ لِي سَجَلًا مِنْ سَجَالِكَ يُرُونِي وَأَهْلِي إِذَا الْأُورَادُ طَالَ لُؤُوبُهَا (٢)
 وَكَمْ أَنْعَمْتَ كَفًّا هِشَامَ عَلَى أَمْرِي لَهُ نِعْمَةٌ خَضْرَاءُ مَا يَسْتَشِينُهَا
 فهو يلتمس دلوًا من دلاء ممدوحه ، وخيرًا من خيراته ينعم بها مع الأهل إذا أجدبت الأرض وقل الرزق . وكم هشام من نعم خضراء على الناس ، وبذلك يبين الشاعر عن حاجته إلى العطاء ووضعه من الاستجداء ، ويشكر للمنعم ماله وأياديه ، يستعطفه ليعطى ويثني عليه لكرهه . والشاعر يصف الوليد بن عبد الملك بالبدور ويجعل أمه الشمس ، ويمتدح انتسابه إلى لؤي بن غالب ، فيقول :

تَصَعَّدَ جَدًّا بِالْوَلِيدِ إِلَى التِّي أَرَى كُلَّ جَدِّ دَوْنَهَا يَتَصَوَّبُ

(١) النوء : إذا ناه النجم ، فلم يكن في نوءه إلا الريح ولم يكن فيه مطر .

(٢) السجل : الدلو - الأوراد : ج ورد ، وهي الإبل ترد الماء - اللؤوب : العطش .

أرى الثقيلين الجن والإنس أصبحا بمدان أعناقاً إليك تقربُ
وما منهما إلا يرجي كرامة بكفيك أو يخشى العقاب فيهربُ
وما دون كفيك انتهاء لراغب ولا لِمَنَاهُ مِنْ ورائك مذهبُ
فالجن والإنس تمدّ أعناقاً إلى الوليد رجاء الخير والتماس الندى ؛ فكفاه
لا يجيد عنهما راغب ولا يذهب عن الطلب منهما ذاهب ، وهذا كرم مستفيض
يظهره الشاعر ويشهره . والنقاد يذهبون إلى أن مديح الفerezدي لم يكن عن
إخلاص وحب ، وإنما كان تقليداً وواجباً ، يخلطه بالتفاخر والاعتزاز
والتعظيم ، ويكسوه بالسؤال وطلب العطاء ، فقد هجا هشاماً ثم مدحه حين
أصبح خليفة المسلمين .

وجرير مدح عبد الملك بن مروان ، فاستجدي واستندي وتكسب كذلك
فجعل الكرم أهم صفات المدوح ، وقدم بين يدي ذلك غزلاً ونسيباً أو وصفاً
على عادة القدماء ، فقال فيه :

أَغْنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيْبِ مَنْكَ إِذْكَ ذَوَارْتِيَا^(١)
فإني قد رأيتُ عليَّ حقاً زيارتي الخليفةَ وامتداحي
سأشكرُ أن رددتَ عليَّ ريشي وَأَنْبَتَ القوادمَ في جناحي
ألستُم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راحٍ ؟

فهو يطلب إليه الغوث والكرم والسيب ، ويرجو أن يكسو عريه وأن
يثبت قواده ، فهو كالطير إن لم ينجده لم يطر بين العالمين بذكر أو بشعر ،
وانتهى إلى أن بنى أمية خير العالم وأنهم أندى الأتوام بطون راح ، وهذه
الصورة أعجبت النقاد وأطربتهم ، فرأوا فيها أجمل الصور وأبدع التعابير في هذا
الباب ، فكان البيت أطيب ما عرف العرب في المدح ، لأنه رفع ممدوحه فوق العالم

(١) الارتياح : التحرك للعطاء والهشاشة له .

وجعلهم أحسن الناس . وشاعرنا مدح هشاماً بمثل هذا ، وطلب منه المال لينقذه من همومه فقال :

تَعَرَّضتِ الهمومُ لنا فقالتُ جمادة أئى مُرْتَحَل تُرِيدُ
فَقُلْتُ لها الخليفة غير شكَّ هو المهديّ والحكم الرشيدُ
وتبدأ منكم نعمٌ علينا وإنْ عُدْنَا فمنعكم مُعيدُ
تزيدون الحياة إلى حياً وذكر من حباتكم حميدُ
لو إنَّ الله فضّل سعى قوم صَفَتْ لكم الخلافةُ والعُهودُ

أرأيت إلى الحاجة كيف تسوق الشعراء إلى أبواب الخلفاء ، لعلهم ينالون من نعمهم ، فإذا بلغوا وطهرهم زادت الحياة إليهم حياً ، وفرحوا بالنوال فأشادوا بالخلافة وجدّدوا لها عهود الحب والوفاء ، فإذا رأيت مديحاً فاعرف أن وراءه يداً أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه أو خلصه من حبسه أو أقطعه إقطاعاً ، فحبب إليه الدنيا وحرك لسانه بالثناء والشكر .

وهكذا نرى أن العصر الأمويّ كان كالعصر الجاهلي في المديح ، أشاد بالكرم عند الخلفاء وأثنى على الشجاعة ، وسعى إلى المال ، وتكسب لينال ، ويحظى بالجوائز والعطايا .

٢

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسي رأينا الشعراء يمتدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء . ولكنهم زادوا في معاني هذا المديح وصوره ، ما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلام ، وأضافوا على المعاني القديمة صوراً براءة

تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب وحاجة الملك الجديد ، فالخليفة على كرمه وشجاعته وبأسه وقوته وإشراق جماله وصورته ، يجب أن يكون نظيف الأعضاء جميل الملابس ينثر الطيب والعطور بين يديه ، يصلح الفاسد ، ويمنع الفاحشة ويأمر بالعدل والإحسان ، ويتعلق بالدين ، ويبتعد عن الرشوة وبيت المال ، ويقف من الشعب موقف العادل الأمين يجمعهم على حبه والإخلاص له ، ويقوم بسداد أمورهم فيدفع عن ثغورهم الأعداء ، ويبسط الأمن في البلاد ، وذلك لأن مستلزمات الحكم كانت تستوجب هذا ، كما نقول اليوم بلغتنا العصرية .

فبشار بن برد يمدح المهديّ فيرى أنه في قريش في مكارمه وتدينه :
 فَتَى قُرَيْشٍ دِينًا وَمَكْرَمَةً وَهَبَتْ وُدِّي لَهُ بِمَا وَهَبَا
 أَعْطَى مِنَ الصَّمْتِ وَالْوَلَائِدِ وَالْ هَبْدَانِ حَتَّى حَسِبْتَهُ لَعِيبَا
 يَزِينُ الْمَنْبِرَ الْأَشْمَ بَعَطُ مُدْيِهِ وَأَقْوَالِهِ إِذَا خَطَبَا
 وَتَشْرِقُ الْأَرْضُ مِنْ مَحَاسِنِهِ كَأَنَّ نَوْرًا فِي الشَّمْسِ مَجْتَلِبَا

وهكذا ترى أن الشاعر يذكر الدين والتقى وقوة الخطابة وإشراق الجمال فكأنه يتغزل بمحاسنه وحديثه ، فيزين حبه للناس ويجمعهم حوله ، وبذلك يشترك مع العصر في استحسان هذه الصفات الجديدة عند الممدوح ، فهي صفات تتطلبها الحضارة العباسية كما قلنا ، ويقول في مكان آخر يمدح المهدي :

إِذَا غَدَا الْمَهْدِيُّ فِي جَنْدِهِ أَوْ رَاحَ فِي آلِ الرَّسُولِ الْغَضَابُ
 بَدَا لَكَ الْمَعْرُوفُ فِي وَجْهِهِ كَالظَّلْمِ يَجْرِي فِي ثَنَائِي الْكَعَابُ (١)
 لَا كَالْفَتَى الْمَهْدِيُّ فِي رَهْطِهِ ذُو شَيْبَةٍ كَهْلٍ وَلَا ذُو شَبَابُ

فالمعروف يلتمع في وجه المهدي كما يلتمع الثغر في الكعاب ، وهو يفوق الشباب في جماله وبهائه . وهذا مديح جديد يصف إشراق الفضل في وجه الممدوح ، يعطى وهو راض ويمنح وهو مبتسم ، فيضحك الخير في قسامته وتبدو بشائر الجود والندى على محياه . ويزيد بشار أن الخليفة يكره الفحش ويضرب أعناق الرجال وهو حلیم مظفر كريم ، شهم وقور ، ونعلاه تشمهها في الندى لشدة نظافتها ، وأعضاؤه تثير الطيب لشدة طهارتها ، فكأنه الريحان في أنوف الندامى ، وهو ملك تسجد له الملوك يرعى حقوق العرب . ويلح الشاعر على هذه الصورة التي رسمها للممدوح يضحك للندى فيقول :

لَمَّا رَأَى بَدَتْ مَكَارِمُهُ نَوْرًا عَلَى وَجْهِهِ وَمَا اكْتَابَا
كَأَنَّمَا جِئْتُهُ أَبْشُرُهُ وَلَمْ أَجِئْ رَاغِبًا وَمَخْتَلِبَا

والكريم من يضحك حين يعنى ، فكأنك تعطيه الذى أنت سائله ، وتبشره بالربح كأنك لا تسلب منه ولا نكتسب من ماله . ويبالغ بشار في مديح الخليفة حتى ليرى عليه سياء النبوة ، ويقرر أن عنده حجيج القلوب تؤمه لئرى الخير والنور والبركة . والأمن على ذلك مستتب في جميع الربوع والأصقاع ، يسد الثغور بنخيل الله ملجمة ، ويصلح الفاسد ويداوى الصدور ، فتخضع له العرب والجم لقوته وكرمه ، فهو يحيى البلاد بعد موتها ويخرج فيها النور بعد ظلمتها ، لذلك يدعو له بالبقاء وطول العمر ، لعل الله يجعل للبلاد الإسلامية على يديه النصر والفوز والعمران .

ولعل بشاراً من أوائل الشعراء الذين نقلوا مديح الملوك من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميادين جديدة ، فيها حب الرعية والإخلاص للشعب والخير للبلاد حين تلفت العباسيون إلى هذه المعاني فاتخذها الشعراء ديناً وألحوا على ذكرها . ومثله أبو نواس في ذلك إذ سمى الرشيد « أبا الأمان » ورأى أن سياسته خير سياسة ، فقد نزع التحاسد بين الناس وألف بين قلوبهم ، وجمع شتات آرائهم ، فقال :

هَارُونُ أَلْفَنَّا ائْتِلَافَ مَوْدَةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ
 مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالَهُ فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانٌ
 أَلْفَتْ مُبَادِمَةَ الدَّمَاءِ سَيُوفَهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازَهَا الْأَجْفَانُ

ومن لك بملك يجمع الشعب على مودة، ويقتل الأحقاد والأضغان، فتحبه القلوب وتجعل له في كل حنية من حناياها مكاناً؛ وهو لشجاعته تنادم الدماء سيوفه فقلما تختبئ في أجفانها، وإنما هي مشهورة على العدو، وسلولة على الظالم الباغى. وقد بالغ أبو نواس كما بالغ بشار من قبل فدح الأمين وجعله خير الناس جميعاً لم يستثن منهم أحداً فقال:

وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَّغَنَ «مُحَمَّدًا» فَظَهَرُوهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامٌ
 قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى فَلَهَا عَلَيْنَا حَرَمَةٌ وَدِمَامٌ
 مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَقْتَضِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ

ولكننا نلمح في هذا المديح استجداء وحاجة وطلباً للمال يدعو إلى هذا القول والمبالغة فيه، حتى يجعل الأمين خير من يمشى على قدم مما خلق الله من إنس ومن جان؛ وهذه صورة أعجبت القدماء كذلك فجعلوها مثلاً يحتذى وقولاً يتردد في كتب النقد والبلاغة.

ومدح مسلم بن الوليد خليفة المسلمين هارون الرشيد فرأى فيه جامعاً للقلوب على المودة والإخاء ودفن الأحقاد والأضغان، كما رأى بشار من قبل سواء بسواء فقال فيه:

إِذَا اخْتَلَفَتْ أَهْوَاءُ قَوْمٍ جَمَعَتْهُمْ عَلَى الْعَفْوِ أَوْ حَدِّ الْحُسَامِ الْمَهْتَدِ

فهو يجمع الحلم إلى القوة، والكرم إلى البطش، وهو حين نظر إلى الأمين رأى فيه خليفة يحدد عهد أبيه في البأس والشدة:

خليفةُ الله قد ذلت بطاعتهِ صعر الخُدودِ برغمٍ من مراقبها
 أحيَتْ يدها الندى والجود فانتشرا في الأرض طراً وجالا في نواحيها
 كم من يدٍ لأمين الله لو شكرتُ لقصر النفس عن أدنى آدانيها

فالخليفة بذل العصاة وصعر الحدود ، ويحيي بيديه الندى والجود فيعم بهما
 الأرض وتنتشر مكارمه في الدنيا ، وتقصر النفس عن شكر آلائه ونعمه ،
 فراحته تهبان المال ، وبيته في علياء مكرمة يقصر النجم عن أدنى مراقبها ،
 وهو لو حسبت عطاياه وعدت فضائله لقل الحساب وفشل الذي يحصى ،
 ذلك لأن الرجل أثبت دعائم الملك ، وأهلك الأعداء ، وقسم بينهم حظوظ المنايا ،
 ودفن الثورات والفتن بعد أن ثارت نارها وشب أوارها . فصريع الغواني يمجّد
 البطولة والشجاعة والحكمة في أسلوب الحكم ؛ ويمتدح يد الخليفة في إشاعة
 الأمن ورخاء الشعب في زمن يهدد بالفوضى والشغب في أرجاء العالم الإسلامي .

وأبو العتاهية كرميله يمتدح الرشيد للأسباب عينها ، ويرى فيه سيفاً مصلتاً
 على الرؤوس النائرة ، وحامياً للإسلام وناصراً للدين :

إذا نكبَ الإسلامُ يوماً بنكبةٍ فهارونُ من بين البريةِ ناصرةٌ
 ولذلك يرى أن القدر ساقه إلى المسلمين فجعله خليفتهم :

آتتهُ الخِلافةُ مُنقادةً إليه تجرُّ أذيالها
 فلمْ تكْ تَصْلُحْ إلا له ولم يكْ يَصْلُحْ إلا لها

فلا تصلح إلا له ، وقد سعت منقادة إليه تجر الذيل ، وقد شملت عن غيره
 وتأبت على سواه . وظاهر أن الشعراء أحسوا بالحاجة إلى خليفة قوى فامتدحوا
 فيه هذه الصفات أو سعوا إلى نشدانها عنده ، أو حثوه إلى أن يكون في هذا
 الموقع الرصين حيال الفتن الدانية والحروب الخارجية ، والعدو يربص بالمسلمين .
 الدوائر ، ويتجمع على الحدود المتاخمة ينتظر ثغرة في الثغور ليهجم منها ، فيحطم

الأسوار ويخزل الجيوش . ولذلك وقف أبو تمام أكثر مديحه على هذه المعاني ، فرأى في المعتصم مفتاح النصر والظفر ، وسماه المعتصم المنتقم المرتقب في الله المرتقب ، وقال إنه لم يغز قوماً إلا تقدم الرعب جيشه ، ولم يرسل جمعاً إلا كتبت له العزة والكرامة ، فأبطل عمود الشرك واستحق شكر الدين :

خَلِيفَةَ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيِكَ عَنْ جَرشُومَةَ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
بَصْرَتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبَيْرِي فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى حِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

وطبعي أن نرى في مديح الخلفاء صفاتهم الخاصة من كرم وندى وشجاعة وبأس ، مقرونة بمحافظتهم على بيضة الدين وحوزة الإسلام ، وما ينال ذلك إلا بالتعب والسعي ، والجهد والقتال ، فهو مدح يقترن بالحماسة والحث على الحروب ، وقمع الفتن والسير بالناس سيرة الرأفة والسكينة والوقار ، وديوان أبي تمام يغص بالمديح في هذا الباب يشيد بالفتوح والانتصارات وأساليب الحكم العادلة ، قد خص بها المعتصم والوائق والمأمون ، فكأنه مداح العصور العربية كلها ، وشاعر الخلفاء العباسيين ، في حسن ديباجة وجمال صيغة وأسلوب ، سالت في الديوان كل مسيل .

والبحثرى سار سيرة أستاذه فانبرى للمعترز بالله ووصفه بالتقوى والأورع ونصرة الإسلام ، فهو من عليا قريش تناصرت مآثره في فخرهم وله فيهم منصب مكين ومكان رصين ، فقد لبس المسلمون في عهده من نعم المعترز برُداً تزيد على السحائب في الرياض ، لأنه أخو حزم ساس الأمور ودفع الثواب واعتصم بالعزم والهدى ، فعمت البرية مناقبه ، وسار في الناس عدله :

نَمَا زِلَتْ حَتَّى أذَعَنَ الشَّرْقُ عَنُودَ وَدَانَتْ عَلَى صَغْرِ أَعَالِي الْمَغَارِبِ
جِيُوشُ مَلَأْنَ الْأَرْضَ حَتَّى تَرَكَنَهَا وَمَا فِي أَقَاصِيهَا مَقَرٌّ لِهَارِبِ

ولسنا نعجب بهذا المديح ، فالخليفة يبسط ظلال الأمن في مشارق العالم

الإسلامى مغاربه ، وهو يضطلع لهذا العبء السياسى على خير ما يرجو المسلمون ، لذلك جعل الشعراء مدحهم أوفى لسيرورة ذكره وبسط اسمه فى العالمين ، فهو يقول فى المهتدى :

إِمَامٌ إِذَا أَمْضَى الْأُمُورَ تَتَابَعْتُ عَلَى سَنَنِ مِنْ قَصْدِهَا وَسَدَادِهَا ،
تَشَوَّفُ أَهْلَ الْغَرْبِ فَارِمَ بِعِزْمَةٍ إِلَى إِرَامٍ إِذْ مَا نَعَتْ وَعِمَادِهَا
لِتَسْكُنَ ضَوْضَاءَ الْعَرِيشِ وَتَنْتَهَى فِلَسْطُونَ عَنْ عِضْيَانِهَا وَعِنَادِهَا

وهكذا رسم للمهتدى حدود مملكته ووارف عدله فيها ، وذكر أياديه عليها ، فهى تنام مطمئنة حين يسهر الخليفة على رعايتها وحفاظها . والبحترى لا يقف عند هذا فى مديحه لأعمال الخلفاء ، وإنما يتطرق إلى ذكر صفاتهم الخاصة ، فيشيد ببلاغتهم وفصاحتهم كما أشاد بشار وأبو نواس من قبل ، فقال فى المعتمد على الله :

وَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَاسْتَمِعْ مِنْ خُطْبَةٍ تَجْلُو عَمَى الْمُتَحَيِّرِ الْمُرْتَادِ
أَفْضَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَصَادَفُوا أَدْنَى الْبَرِيَّةِ مِنْ تَقَى وَسَدَادِ

فالخليفة خطيب بارع وفصيح متكلم ، يجمع بين برديه ذلاقة اللسان وقوة البيان وطهارة النفس وسداد الفكر ، إلى عدالة يبسطها فى الرعية وأمن يعمه فى الأمصار ، فأحيا صفات المديح فى الجاهلية والإسلام وأضاف إليها مديح العباسيين وما يستحسنونه من خلفائهم وقد اتسعت رقعة الملك وفاضت المشاكل وكثرت الحروب ، ويعترف البحترى بأنه ينظر إلى المثل العليا عند الأجداد يحياها الخليفة ويكمل بها سيرة الآباء ، فيقول فى المتوكل على الله :

أَحْيَا الْخَلِيفَةُ «جَعْفَرُ» بِفَعَالِهِ أَفْعَالَ آبَاءِ لَهُ وَجُدُودِ

ولا بد لنا من القول هنا إننا حين نستعرض صور المديح نلمح رسوم المعارك

والغزوات وقد احتدمت الحزوب ، واهترت الأرض ومالت بثقلها ، فإذا طلع وجه الخليفة انجلت السحب وانقشع الجو ، وذكر المحاربون بطلعة أمير المؤمنين طلعة النبي في غزواته فهللوا وكبروا إجلالاً وتوقيراً ، والخليفة على ذلك متواضع خاشع لا يزهي ولا يتكبر :

وَمَشَيْتَ مِشِيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ اللَّهُ لَا يَزْهُو وَلَا يَتَكَبَّرُ
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَاتِمًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

٣

وذلك يدعوننا إلى التفكير بهذا المديح يرسله الشعراء العباسيون فيضفون عليه طابع الحماسة والدين والسياسة إلى المديح الخالص الذي يرسم صفات الخلفاء ومزاياهم ، فهم لا يستطيعون أن يفصلوا بينها في ذلك العهد لأنها مما يرفع شأن الحكام ويعلى مقامهم في أعين الشعوب ، فلم يقصدوا إلى السياسة قصداً أو إلى الدين عمداً ، ولكنهم جعلوها من حسنات الخليفة وأياديه ، فأضافوا إلى المديح الأموي نظرة واسعة إلى أعمال الخلفاء لم تكن من قبل ، ساق إليها ظرف جديد ومحيط جديد ، يجب فيه على الحكام أن يلفتوا إلى حال الشعوب ؛ يدفعون عنهم البؤس والنحس والفوضى والفتن ، ويقفون فيه على الأمن والرخاء والعدل والنصر ، وبدونه لا يقع الخليفة من نفس المسلمين موقعاً حسناً . والشعراء أحسوا بهذا فأشركوه بمدحهم وأدخلوه في معانيهم ، ليدخلوا في أذهان الناس أن الخليفة على صفاته الخلقية الشخصية ، يعنى بالمسلمين في كل ما يلم بأمرهم ، وذلك كما يفعل أرباب الصحافة الحزبية لعصرنا ، يعلنون الخير ويلمحون به ، ويجمعون للزعماء صفات العدل والنظر إلى أمور الرعية ، فتصدق الرعية ما يقال وتسير

وراء هؤلاء السادة القادة، وذلك أدركه شعراء بني العباس منذ ألف عام، فكسبوا للخلفاء نصر الجماهير وجمعوهم على حبهم، بأساليب مختلفة من البيان يوطنون بها أكتاف المديح فيستعملون الصور والمعاني التي تطرب الشعب وترقص خياله، فيقع لهم ما يريدون من مديحهم سواء أكانوا صادقين أم دعاة متحزبين، فالبيان كالسيف يبنى ويهدم ويضع ويرفع، وكثيراً ما يصنع المال في كسب البيان ويكون المديح.

ونحن حين نقول ذلك إنما نتمهد به لعهد جديد، تقسمت فيه الممالك وكثر الملوك، فأصبح الحكام يشترون المديح ويهبون من أجله، وكان التنافس بين هؤلاء الملوك كتسابق الأحزاب السياسية اليوم، لذلك كثر المديح في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي، وهب الشعراء يتنقلون من مملكة إلى مملكة وراء الممدوح ينالون أجر ما ينفقون من قصيد ويروجون من دعاوة؛ فقد أحدق الأعداء بالممالك وأصبح لكل بلاط جيش، ولكل جيش مهمة. وللشاعر أن يحث المهم وأن يشيد بنضال الملوك وصبرهم على القتال والجهاد.

وأبو الطيب المتنبي من خير من يصور المادحين ويمثلهم في هذا الميدان؛ فقد انتقل من ملك إلى ملك، وشهرته تسبقه في المديح، فقام في كل بلاط مقام الصحيفة السياسية اليوم، فامتدح سيف الدولة لحرابه وانتصاراته ضد الروم الغازين أو القبائل الثائرة، ورأى فيه الملك المنقذ والقائد الحكيم والأمير السخي، ورسم غزواته وسراياه تبرى، والدمستق هارب محجر، والجيش الرومي موزع بين القتلى والأسرى، وأموال العدو نهب؛ فصوره كالليث أو السيف أو الغيث، وقال إنه يملك أنفوس الثقيلين ويحصى أنفاس الأعداء، فهو سيف الله لاسيف خلقه، وهو أطعن من مس سيفاً، وأضرب من أمسك بحسام، يتصرف بالردى ويسوق المنايا:

فَأَنْتَ حَسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدٌ

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لامني فيك السها والفراقُ

فهو شمس الزمان وبدر الزجود ، ولواء الدين وحسام الملك ، وهو محض الحلم في محض القدرة ، يفوق الناس رأياً وحكمة كما يفوقهم حالاً ونفساً ومحتداً . إنه حامي الثغور وقائد الكتائب وبطل الأبطال . وسيف الدولة فوق ذلك كله مجير الشعراء ينيلهم من عطايه وجوائزه ، حتى قال فيه أحد المؤرخين إنه كان يهدم قرية ليجيز شاعراً ، ولذلك قصده المتنبي وصارحه بحاجته إلى المال ، وطلب إليه ضيعة أو ولاية وإقطاعاً كما طلب إلى غيره من الملوك ، فقال يخاطب سيف الدولة :

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما بشعري أتاك القائلون مُردداً
ترك السرى خلق لمن قل ماله وأنعلت أفراسي بنعمائك عسجداً
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى وكنت على بعد جعلتك موعداً

وقد اعترف الرجل بأنه طلب ونال فخلف الفقر وراءه وأنعل أفراسه عسجداً بفضلته ، وبلغ إلى الغنى ، فلم يخف سعيه وراء المال والجد ، ومدحه ديوان يعدد أمجاد سيف الدولة ومفاخره في معاركه وغزواته ، فيخفف الاتكسار ويبسط الانتصار ، وكأنه صحيفة شعرية لتاريخ هذا الرجل ، أو سفر ألقه في مدحه وسيرورة ذكره كما ألف القاضي ابن شداد في صلاح الدين ، أو ابن قاضي شهبة في نور الدين ، أو كما يصنع الغربيون اليوم في نشر محامد المترجمين ، لم يغادر كبيرة ولا صغيرة من حياته إلا صنع منها موضعاً للمديح ، حتى جعله أعظم العرب قاطبة ، بل إن العظماء يتمنون في عصورهم كلها شاعراً كالمتنبي يرفع ذكرهم ويشيد بمآثرهم ، ولكن أتي للعصور أن تلد لكل جيل مداحاً كأبي الطيب ؟ وهو مع ذلك . يأسف أنه لم يستوعب كل مزايا سيف الدولة ومناقبه ، فيقول :

لَيْتَ المَدَائِحَ تَسْتَوِي مَنَاقِبَهُ فَمَا كَلَيْبٌ وَأَهْلُ الأَعْصَرِ الأَوَّلِ
 خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحْلِ
 إِنَّ الهَمَامَ الَّذِي فَخِرُ الأَنَامِ بِهِ خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفَى خَيْرَةِ الدُّوَلِ
 تُسَمِّي الأَمَانِي صَرَغِي دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذَلِكَ لِي

ذلك لأن التواريخ العربية تضرب المثل في العزّ ، فتقول : « أعزّ من كليب » ولكن المتنبي لم يرض للمليكة هذا بل رفعه فوقه ؛ وجعله كالشمس في نورها وإشراقها ، وأين نور الشمس إذا قورن بضوء زحل ذلك الكوكب البعيد ؟ ثم وضع سيف الدولة في جنان النعيم تتسابق الأمانى صرعى في سبيل رضاه فما يجد ما يتمنى ولا يأسى لفقد شيء لأنه فوق الرغبة والأمنية ، ومثله لا يسعى إلى شيء ، وإنما تسعى إليه الدنيا ومناقبها . والمتنبي هنا بلغ مرتبة في المديح لا ينافسها فيها شاعر ، إذ ركب متن الخيال فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعمير ، يدفعه إلى المديح حبّ مليكه وإعجاب به ورويته وشجاعته ، ووقوفه للأعداء وقفة الأسد المحصور والسور المنيع . وشاعر القرن الرابع كالتابفة يفضل مليكه على الملوك جميعاً ، فهو شمس وهم الكواكب ، وهو بحر والملوك جداول :

أرى كُلَّ ذِي مَلِكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُهُ كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ
 إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَابٌ فَوَالِإِلَهُمْ طَلٌّ وَطَلُّكَ وَابِلٌ

فهو المطر المنهمر في سخائه وجوده وكرمه وهم كالطلل الشحيح ، وأنه الفتى المغوار والمليك الخلاجل تطيعه الأرواح وتلتف حوله القبائل ، وتقبل بساطه الملوك ؛ والأعداء في الدنيا عبيده والأموال كلها غنائمه ، وقد ظلمه من سماه سيماً فما كل سيف قاطع ، ومكاريه كالسيوف تقطع الشدائد جميعاً . ويتجاوز المتنبي الجود إلى الشجاعة في رسم سيف الدولة في صورة بارعة لا نرى فوقها في مديح

القواد والشجعان الأبطال يقول :

تَمْرُ بكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةٍ وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَشُغْرُكَ بِاسْمٍ
تَجَاوَزَتْ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالتَّهْيِ إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ: أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ

وهذه الصورة يخطبها إسكندر المقدوني ونايبيون وغيرهما من قواد الغرب فلا يقعون على مثلها ، وتراها تهادى في خطب ود سيف الدولة لتجعله في قادة الدنيا وأبطال العالم ، وتببه العلم بالغيب والمعرفة بالأقدار ، فهو يقف وسط المعارك الصاخبة ضاحكاً لأنه يملك الزمان بكفيه ، ويتحكم في الحروب بيأسه ، وينتهى في مدحه إلى غاية بعيدة المدى فيقول فيه :

القائمُ الملكُ الهادى شهدتُ قيامه وهدايه العربُ والعجمُ
لا تطلبنَّ كريماً بعد رويته إنَّ الكرامَ بأسخاهم بدأ خُجِمُوا

وهكذا لم يترك واسطة لمديحه إلا بندها ، فختم على غيره وسد الباب على الأسمياء الكرام وجعله خاتم المدوحين ؛ ولكن النقد على ذلك يرون أن هذا المديح متكسب يحته المال وتدفعه العطايا ، يجاجل باللفظ الضخم والعبارة المتينة ، ويصدر عن اللسان لا الجنان . وخير منه في نظرهم مديح أبي فراس الحمداني ، فقد كان من قريب إلى قريب وحبيب إلى حبيب ، يندفع عن صداقة وإعجاب خالص لا يعكره طلب ولا تفسده عطية ، إذ يقول في سيف الدولة :

فليتكَ تَحَلُّوْا وَالحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ وليتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غَضَابُ
وليتَ الذى بينى وبينكَ عامرٌ وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذى فوق الترابِ تُرابُ

وهذا هو المديح العف الذى يطلب الود ويسعى إليه ويغليه عنده ، وكل

ما عداه في نظره تراب ، وهو أحسن المديح وأجل الحب ؛ لأنه يشيد بالأبدي ويعترف بها في تواضع وصدق :

فكم لك عندي من أيادٍ وأنعم رفعتَ بها قدرى وأكثرَ حسدى

فسيف الدولة قد رفع للأسرة مناراً ، وبنى لها عزاً قوى الدعائم ، وشيد مجداً مشتد المراتر ، لذلك وهبه الشاعر نفسه وهي عزيزة عليه :

شريتُك من دهرى بذى الناس كلهم فلا أنا مبخوس ولا الدهر باخس
وملكتُك النفس النفيسة طائعاً وتوهب للمولى النفوس النفائس

وفي هذا القول اعترار بالملك ، ومديح صاف لشخصه ، وإكبار لبطلته وقدره ، فكم رسم في قصيده من صور القتال الذى خاضه سيف الدولة حتى اشتكت الخيل من طول السير والنضال ، وعزف الروم أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل بجوار هذا البطل الذى يزور الثغور فى كل ساعة لا يثنيه خوف ولا يحجبه رعب .

ومدح السرى الرفاء سيف الدولة كذلك فرأى فيه ليناً يصول، له فى كل أمانة صحاب وفى كل جارحة شهاب ، خضعت له آفاق البلاد ، وذلت له رقاب الملوك واعتز به الإسلام ، فهو غمام تخشى صواعقه ، وهو كالدهر لا تكبو حوادثه ، والمجد ينتسب إليه لما قام به من غزو الروم والإحسان إلى الناس ، فهو فى السلم أمير يعطى وفى الحرب قائد يستلب النصر والظفر :

فيوم الحرب تطريك المذاكى ويوم السلم يطريك التشيد

وأنت الدهر إنعاماً وبؤساً وما للدهر نعلمه حسود

وقد أطال الشاعر فى مديحه ، فخصه بقصائد كثيرة عامرة تجعله حيناً كالبدر فى حسنه والغمام فى جوده ، يحن إلى ورد المنية ، وتجرى سعوده فى البرية ،

يشغل الناس من أصدقائه وأعدائه ، أولئك لا يفرغون من ذكره بالخير وهؤلاء لا يفرغون من ذكره بالخوف . وابن نباتة السعدي امتدح سيف الدولة كذلك فرآه كريماً يبذل مهجته في سبيل غيره ، ويعلم الدهر فضيلة الكرم والخلق الجميل . وكثير من الشعراء التفوا حول هذا الأمير يتنافسون في مديحه واخترع الصور الجليلة في وصفه ، فجعله الأواء الدمشقي يلبس الأيام ثوب شبيبة بعد أن شابته ، ووضع المنايا تحت ظل سيوفه ، ورسمه بأنه كعبة الآمال وسيد الشجعان ، يلبس الدروع كالغلائل ، ويركب الموت كما يركب الخيل ، ويلخص القول فيه :

أمانٌ لمرتاع وروع لآمن وكهف لمطلوب وحرب لغالب

٤

وظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر العباسي ، فيزداد عكوفاً على الصور التقليدية ، ويرددها قيل من قبل ، ويعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأهم بلغوا ذروة المديح ، ولا بد من انحدار بعد هذا العلو الشاهق ، فأصبح الشعراء في محيط ضيق من المعاني وعدد محدود من الصور ومعجم رسوم من الألفاظ والتراكيب ، كأن الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا في مديحهم للملوك إلا ما يقع في الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة وحادثة طارئة ، فالدول تخوض المعارك والأعداء في ازدياد ، والغزوات كانت من الروم فأصبحت تفتد من أوربة ، تحمل الدمار والنار إلى قلب البلاد الإسلامية ، فهض المداحون للمعاني الباسلة والصفات الفاضلة يلصقونها بملوكهم ، فهم في جهاد وقتال ، والملوك قواد الجيوش ووزراء الدفاع ، وهم قطب الرحي في المعارك ، عليهم يتوقف النصر وبن أيديهم تسيل الأموال . واستوى في هذه الصور شعراء المشرق والمغرب فأولئك وهؤلاء كانوا يرون الأعداء

تهجم على هذه المملكة الإسلامية الشاسعة من التبت إلى شطآن الأطلنطي
يريدون بها شراً وخزياً ، ويريد لها الشعراء نصراً وفخراً .

كذلك وقف ابن هاني الأندلسي بمدح المعز ، فيرى فيه الشجاعة
والكرم ، فيجعل الملائكة منزلة لنصره ، يطيعه الإصباح والإمساء ، وعليه من
سما النبي دلالة ، وعليه من نور الإله بهاء ، تفر منه الأعداء وتسقط أمامه
الهامات ، وهو معز الدين والجلود وهادي الرشاد ، وهو ضياء الظلام إذا ادلمت
الدنيا :

فَأَنْتَ سَيَّرْتَ مَا فِي الْجُودِ مِنْ مَثَلٍ باقٍ وَمِنْ أَثَرٍ فِي النَّاسِ مَحْمُودٍ
لَوْ خَلَّدَ الدَّهْرُ ذَا عَزِّ لِعَزَّتْ كُنْتَ الْأَحَقُّ بِتَعْمِيرِ وَتَخْلِيدِ

وكذلك استعمل ابن هاني صور القديما فجعله مثلاً سائراً للجلود ،
شجاعاً في الأسود ، وبجرأ طامى العطاء ، وهو فوق الملوك ، يلهون ويمجد ، وهو
جوهر وهم عرض ، وهو غيث لا ينقطع :

النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظِلْمَةٌ وَالْفَوْقُ أَنْتَ وَكُلُّ قَدْرٍ دُونَ

وبالغ ابن هاني حتى عدا الحدود فقال في المعز الفاطمي :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاحْكَمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ «مُحَمَّدٌ» وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ
أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تَبَشِّرُنَا بِهِ فِي كِتَابِهَا الْأَحْبَارُ وَالْأَخْبَارُ

وجعله كالنبي محمد ، مرسلًا ونبياً تدعمه الأنصار التي ساندت النبي
وتخبر عنه كتب الأحبار والأخبار ، بل جعله فوق الأقدار يتحكم بها كأنه

واحد القهار ؛ وهذا منتهى ما يبلغ إليه المديح ، فالخليفة ظل الله على الأرض فيما يقولون ، وهو شجاع وكريم ، ولكنه لن يرقى رقى الأنبياء ، ولن يبلغ مقدرة الإله ، وإنما هو الشعر المتكسب يخدع الناس ويصور لهم البشر أنبياء وآلهة ؛ وما ذلك إلاً لأنه ضاق ذرعاً بالمعاني المطروقة والألفاظ المعروفة فأراد أن يخرج عن الحدود المرسومة والسنن المعلومة ، فسقط في التهوريل والكذب والمبالغة ، فقال الصابى يمدح عضد الدولة :

صلّ ياذا العلاء لربك وانحر كل ضدّ وشائى لك أبتَرَ
 أنت أعلى من أن تكون أصحابه لك قروماً من الجمال تحضّر
 بل قروماً من الملوك ذوى السؤ دد تيجانها أمامك تُنشّر
 كلما خرّ ساجداً لك رأس منهم قال سيفك : الله أكبر

وجعله فى مقام الإله يسجد له الناس ، صاحب طغيان وجبروت يفوق البشر ويغلب الأقدار . وليس ذلك كثيراً إذا قيس بالزعرانى حين قال فى ممدوحه :

أنت الذى دنتُ بالسجود له حتى لقد قيل : ربّه صنم
 ولا تسل عن غلو المحوس والفرس الصابئة فى مديحها للملوك ، وتفضيلها للفرس على العرب ، وذلك للضعف السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، وقسمها شيعاً وأحزاباً ، فضاعت الموازين واختلت المقاييس ، وركب المديح كذب ليس فوقه كذب ، وكان ذلك مؤذناً بجأمة هذا الفن ومصرعه على أيدي هؤلاء الغلاة .

أجل ، سقط المديح فأصبح الشعراء يلحون في طلب المال ويجددون طلباتهم في صراحة تبلغ القمحة ، يبيعون شعرهم ونفوسهم ويتزلون إلى درك الطلب والمسألة . فإن كان المتنبي طلب ضيعة أو ولاية فالشاعر عمارة اليمنى سأل شمس الدين تورانشاه ما لم يسأله أحد مثله :

فَأَمَّنْ عَلَى بِنَصْفِ الأَلْفِ رَاتِبَةً فَقَدَّرُ وَدَكَ لَا يَحْوِيهِ مِقْدَارُ
مقسومة في شهور العام تحمل لى أقساطها كل شهر وهي إدرارُ
فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على شهور العام في أقساط تحمل إليه ليعيش وينتعش ، وهذا في نظرنا نهاية المطاف بالشاعر الحر ، ونزول إلى درك السائلين الشحاذين ؛ وبعد عن العفة والإخلاص في المدح ، وكشف عن أستار المادحين وسقوط بمرتبة المديح في ظاهر اللفظ وصریح الطلب ، كما فعل سبط ابن التعاويذى حين عاتب الملك العادل يوسف بن أيوب في عطائه وطلب إليه أن ينظمه على صلوات موقوتة معينة من العام :

وكان يا «يوسف» السباح بنا إلى عطايك شوق «يعقوب»
حاشاك أن ترسل الصلّات على غير نظام وغير ترتيب
فتلاعب باللفظ وجعل شوقه إلى مليكه يوسف شوق يعقوب إلى ابنه ، ثم عاتبه بعد ذلك على النظام والترتيب في إرسالها ورأى أن لا يسوى بينه وبين غيره فيها :

سَوِّتَ بِي فِي العَطَاءِ مَنْ لَا يَجَا رينى في مذهبي وأسلوبي

وغيرُ بدعٍ فالسَّحْبُ ما برحتُ . يقلُّ منها حظُّ الأهاضيبِ
شعريَّ ربُّ الأشعارِ قاطبةً وهل يُسَوِّى ربُّ بمربوبٍ ؟

وهو في هذا يضرب على حوافر المنبجى مع بعد الزمن وفارق العبقرية ،
فيقلده حين طلب أبو الطيب إلى سيف الدولة أن يجزيه لكل شعري يسمعه من
الشعراء فهم صدى لشعره ينتحلون منه ويسرقون ويتقدمون به في المديح ،
يرددون ما قاله فكانه يريد أن يختص نفسه بالعطايا والصلوات وأن يجرم منها غيره ،
وهو وحده الشاعر وغيره نظام لا يجيد أمراً . وقد صدق المنبجى فأصبح الشعراء
يقلدونه في مديحه وهم أصداء لشعره من غير شك ، يسألون كما سأل ويلحون
كما ألح ويبالغون في ذلك حتى أسفوا في المسألة والإلحاح والأنافة .

وأصبح المليك في نظر الشعراء مقسم الأرزاق والآجال بين الورى ، فيقول
سبط بن التعاويذى في مليكه :

قَسَمْتُ يَمِينُكَ فِي الْوَرَى الْأَرْزَاقَ وَالْآجَالَ بَيْنَ مَنِي وَبَيْنَ مَنُونِ
وَأَرَيْتُنَا بِجَمِيلِ صُنْعِكَ مَا رَوَى الرَّأْوُونَ عَنِ أُمِّمِ خَلَّتْ وَقُرُونِ

فجعله في مقام الإله — عز وجل — بمنح الأرزاق والآجال ، تتعلق به
النفس ويقف اللسان على مدحه وإجلاله دون الله ، كأن المديح عبادة و صلاة
يرتلها الشعراء أمام هؤلاء الآلهة الصغار ، وبذلك يعودون بالشعر العربي إلى وثنية
دونها و وثنية اليونان ، فيحكون عن ملوكهم أساطير لا تشبهها أساطير القرون الأولى ،
ويسقطون بالمديح سقوطاً يظل أجيالاً وقروناً يتردى في حفرة الجهل والظلمات ...

ولما كان القرن التاسع عشر للميلاد نهض المداحون لملوكهم ؛ فراحوا يقلدون
الشعر القديم ، ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميداناً يرتعون فيه ، فقال محمود
الساعاتى في « ولي النعم الحديوى الأعظم » إنه أنار الدنيا ودان للملكه كل مسود ،
فعم نور العدل مصر ، وأشرقت بسماحته وجوده ، وتولى الجور عنها ، فبشرى

لأهل البرّ والبحر والعلی، إنه المليك الكريم الشجاع، يبعث الرعب في الأعداء، ويكسب الغنى جماعة الأصدقاء، وجيشه جرّار وعسكره يملأ الأرض؛ فلما سافر الخديو إلى الحج قال فيه:

مَلِكٌ تَتَوَجَّعُ بِالْوَقَارِ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ الْمَهَابَةِ وَالْكَمَالِ رِذَاءُ
يَسْمَعِي إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ مُسْرِبِلًا بِخَشْوَعِهِ وَأَمَامِهِ الْأَضْوَاءُ

وهو على هذا الشعر الركيك يخرج علينا بصور ممسوخة في تشطير ضمنه التاريخ في الشعر على عادة العصر، فسقط وأكثر من السقوط حتى عدنا المديح هزيباً لا يسمو إلى ابتكار ولا يجرى مع الفحول في مضمار.

ومحمود سامي البارودي أعاد للمديح أسلوبه المتين ولفظه القديم، وأضاف إليه صوراً استقاها من العصر، فاستعمل البرق في تصوير بشر الخديوى، وجعله كالطبيب في شفاء الأمة ثم قال:

لَا زَلَّتْ فِي فَدَاكِ الْمَعَانِي كَوَكْبًا تُهْدِي الضِّيَاءَ لِأَعْيُنٍ وَقُلُوبٍ

وقلّد القدماء كذلك في امتداح حسنات المليك وخدماته للشعب، وخيراته في الوطن، فقال إن مصر أصبحت في عهده شرعة للوراد، يرعاها برأفة والد، ويحميها بصولة أسد. وقدّس المشورة في الحكم وهي حلية كل راع مرشد، أوصى بها الدين وتقيدها الغريبون. ورأى فيه نوراً وهداية وسعداً وغناً للأمة والوطن. وهكذا قلّد القدماء في رفعة المليك واتخذوا التعابير العصرية سبيلاً إلى ذلك، وحذف كلمة العرب والعجم واستبدل بها الشرق والغرب، وقال بأن الخديو بعث السلم في الناس، وأزاح ضباب الحرب، حتى دعا له بالخلود إلى قيام الساعة:

وَدُمَّ عَلَى الدَّهْرِ فِي مُذْكَ تَعِيْشُ بِهِ مُرَقَّةَ النَّفْسِ حَتَّى نَفْخَةَ الصُّورِ
وسار حافظ إبراهيم على خطة البارودي في مديح الخديو عباس الثاني

في مطلع القرن العشرين ، يمجّد فيه عزيز مصر ، ويحمد فيه أياديه على الوري فهو حلّيم عادل ، وهو ابن أكرم من ساروا ومن ملكوا ، وهو الأب المقتدى أجرى الخير في النيل فاهترت جوانبه ، وفاض بالنعمة كل سهل وواد ، وهو بناء الرجال ، أخلصت له الأمة في سر وإعلان ، ولولاه ما طلب الشعب حقاً ولا شعر بحب الأوطان :

حَسْبُ الأَرِيكَةِ أَنْ اللهُ شَرَّفَهَا فَأَصْبَحَتْ بِكَ تَسْمُو فَوْقَ كَيَوَانَ (١)

وحافظ إبراهيم يدعو لرفعة الشرق ، ونهضة الصقر بعد طول خمول على يدي مليكه وهو محبوب ومحروس :

فَعَرُّشُكَ مَحْرُوسٌ وَرَبُّكَ حَارِسٌ وَأَنْتَ عَلَى مَلِكِ القُلُوبِ أَمِيرٌ

ويعتمد حافظ في مديحه على خطة القدمات في نصره المليك للدين وعمله لرفعة الإسلام وحربه للشرك ، ولذلك يمدح عبد الحميد فيرى أنه تجلّى في بلديز على عرش الجلال وتواجه يهش بالنعمة والمجد ، والمسلمون في مشارق الأرض ومغارها يدعون له ويلحون في الشكر إلى الله يلتمسون له النصر ، ويشنون على أياديه في كل مكان ، فهو يسكن القلوب جميعاً ويرتعي حباتها ويحلّ في الوجدان . ويشيد حافظ كذلك كما أشاد البارودي بالشورى ، ويشكر للملك أنه أقام شريعة الديان ونصر الإسلام بمدافعه وقنابله وبنادقه :

فَلَهُ عَلَى الدُّنْيَا الجَدِيدَةِ نِعْمَةٌ يَشْدُو بِذِكْرِ صَنِيعِهَا الفَتَيَانَ (٢)

فالشاعر يمدح الملوك كما مدح القدمات ملوكهم ، لأنهم أقاموا عمود الدين ، ودافعوا عن حياض الملك ، ورفعوا لواء الإسلام ، وعملوا على نهضة الشعوب الإسلامية ، وكان يعجب بالخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب خاصة ويرجو

(١) كيوان : اسم للكوكب زحل بالفارسية .

(٢) الدنيا الجديدة : أمريكا - الفتیان : هما الليل والنهار .

للحكام أن يقلدوهم ، ولذلك رسم سيرة عمر في شعره لعل الناس يعرفونها
ويأخذون بها ، ولعلمهم يستعيدون ماضى الإسلام حين كانت شوكته في
كل مكان ورفعته في كل جانب ولوآؤه في كل صقع .

وأحمد شوقي حمل اللواء في هذا العصر ، ومدح الملوك مديحاً لا يخلو
من جدّة وطرافة وجمال وجلال ، فجعل ديوانه سجلاً لتاريخ الإسلام والأمة
المصرية ، وما كان للمسلمين والفراعنة من عز ومجد وتاريخ خالد . وقد
استوى في مديحه على صيغ وتعابير تنهض مع العصر وتحلق مع الزمان ،
فقال في عبد الحميد إنه نهض بعرش ينهض الدهر دونه خشوعاً وتعشاه الليالي
وترهبه الأيام ! وإنه عين جارية تفيض على مرّ الزمان وتعذب على الدهر ،
فتحجي موات الأرض ودارس الرسم فكأنه عيسى ، عليه السلام .

وسجل شوقي أعمال الخليفة للمسلمين ؛ فقد ناموا في غبطة قريري العين ، لأنه
ساق إلى الأعداء جيشاً أفشى في البلاد من الضحى وأبعد من شمس النهار ،
يرى به البحر من كل جانب ويرسله في كل شعب فيمتصر ويظفر . وهو بذلك
يذكرنا بشاعر الحمدانيين المتنبى إذ يصور جيش سيف الدولة ، ويعيد إلى
أذهاننا ذكرى الحروب بين العرب والروم في رسم هذه المعارك والغزوات . وشوقي
يقف بباب الملوك كما وقف المتنبى من قبل ، ويمتدح هؤلاء لعكوفهم على الدين
ونصرتهم للإسلام ، ولولاهم لضاع الملك وتشتت أواصر الخلافة ، فهو كشعرائنا
القدماء في هذا سواء بسواء .

ولا يقف شاعرنا عند المسلمين ، وإنما يعود إلى ماضى مصر ، فيمتدح
ملوكها القدماء ويشيد بأبجادهم وتاريخهم وأباديهم على أرض النيل . وينتقل بعد
ذلك إلى ملوك مصر المعاصرين من سلالة محمد على فيخلص لهم الود . ويمحضهم
المديح .

وكان أحمد شوقي في مديحه صورة للمديح في أدبنا العربي منذ النابغة حتى
اليوم في أغراضه وصوره ؛ لا يختلف عنه إلا في أساليبه الجديدة التي أخذت من

روح العصر وتعايير المحدثين ، فارتفع بالمديح التقليدى إلى مرتبة تجعله بحق شبيهاً بأبي تمام في العباسيين ، والمتنبى في الحمدانيين .

* * *

ونلاحظ أن المدنية الحديثة وتيارات الأدب لم تبدل من نظرة كثير من شعرائنا في المديح ، بالوطن والمهجر ، كأن الشاعر ما يزال في حاجة إلى من يدعمه ويسانده ، لا يخلق إلا إذا كساه هؤلاء ريشاً يطير به ليعيش وفور الكرامة مكفى المثونة ، يحقق طموحه المبحج على أيدي الملوك ، فيستوى بذكائه وثقافته مع غيره من الميسورين في صعيد واحد من عيش رافه ومنزلة مستقرة .

الفصل الثاني

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف والأمراء والوزراء والقواد أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء ؛ ولم يكن من الميسور دائماً أن يحظوا جميعاً ببقاء الملوك والدخول على الخلفاء ، لذلك تعلقوا بأسباب من دونهم وسيلة إلى الجاه حيناً وإلى المال أحياناً . ونظر الشعراء إلى هؤلاء غالباً ، نظرة الغريق إلى المنقذ ، والفقير إلى الغني ، واحتجاج إلى المتفضل ، فامتدحوهم كما مدحوا الملوك ، ولعل مرد ذلك إلى أن المديح ضاق بهم عن اختراع لون مختلف لكل طبقة من طبقات الممدوحين ، أو لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرهم إلى الملوك من غير تفریق أو اختلاف . وقد عرضنا في الصفحات السابقة أغراض الشعراء ومعاييرهم حين يمتدحون الملوك ؛ وعرفنا كيف كانوا يصفون هؤلاء الخلفاء ، وسنبين هنا في إيجاز ما كانوا يقولون في هؤلاء السادة وجهاء الأمة ، ونبلأ العشيرة وقادة الجيوش .

مدح النابغة النعمان بن الجلاح قائد الحارث بن أبي شمر الغساني ، ومدح غيره في الحجاز ، وكان يشيد بعلو المنزلة والسخاء والشجاعة والتدين والعقل والحجى ، وقد كان أول أمره يبعث الشكر ويرسل الشاء لما نال من كرم وندى ، ثم تكسب بذلك فأصبح هذا اللون حرفة له . وهو يصرح في شعره بأنه لم يمدح عمره سوقة ، وإنما يمدح العظماء والملوك .

ومدح زهير بن أبي سلمى كل من قام بإصلاح ذات البين أو عمل عملاً كريماً ، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين عيس

وذبيان ودفعاً للديبات من مالهما الخاص حقناً للدماء . وكان مدحه لهما ولغيرهما يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة ورأى كريم ، وأصل عريق وتقوى خالصة . وكان زهير مخلصاً في هذا المديح يسعى وراء المعروف والفضل فيشيد بهما ، ولكنه كان يفتح المديح بالغزل التقليدي ، ثم ينتقل إلى صفات المدوح فيقول في هرم :

أَغْرُ أَبْيَضُ فَيَاضُ يَفْكَكَ عَنُ أَيْدِي الْعُنَاةِ وَعَنْ أَعْنَاقِهَا الرَّبْقَا (١)
مَنْ يَلْتَقِ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلْتَقِ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
لَوْ نَالَ حَيًّا مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرَمَةٍ أَفْوَقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفَّهُ الْأُفْقَا

فهو بين الكرم ، يشرق وجهه بالندى ، كثير العطاء ، خلقت معه السماحة والحدود ، يحتل بمكارمه مكاناً سامياً حتى لتلامس كفه الأفق في رفعته وهو منزلة وعظم مقامه بين الناس . وهذه صفات العرب ومثلها العليا . ويقول زهير في هرم كذلك إنه حامي الدمار ، حذب على المحتاج ، يحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم ، ويسعى إلى جميل الأحدثة وطيب الذكر . وهو مع الحارث بن عوف يتداركان الأحلاف في الضيق ، فيحوم حولهما أصحاب الحاجات يسألونهما ما يريدون ويعطون ما يطلبون ، وبجالسهما تشق بأحلامها وآرائها كل جاهل متعنت :

فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وإلى هذا الخير والكرم يجتمع في المدوحين عند زهير فضل الشجاعة والبطولة ، يكررها كلما وقف عند مديح فيقول في حصن بن حذيفة :

وَأَبْيَضُ فَيَاضُ يَدَاهُ غِمَامَةٌ عَلَى مَعْتَفِيهِ مَا تَغَبَّ نَوَافِلُهُ (٢)

(١) أغر: في وجهه غرة ، أى أنه بين الكرم - فياض : كثير العطاء - العناة : الأسرى - الربق : ج ربقة وهو جبل طويل فيه مواضع تجعل فيها روس الحملان ، وهى الأغلال هنا .
(٢) المعتفون : الذين يطلبون ما عنده - نوافله : عطاؤه كل يوم ، أى أنها دائمة .

ويعيد هنا قوله في هرم وعبارته نفسها ، فيشهد أن ممدوحه نقي من العيب صاف من الدنس والعيوب ، ويداه تسحان كالغمامة وتمطران بالعطاء ، وهو كريم بماله يسخو باشاً مهلاً إذا ما أقبل إليه طالب معتف :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَهْلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وهذه صورة ألح عليها المتأخرون ، وكرروها وأعادوها في شعرهم بعده ، يصفون المتفضل وهو يجود بماله قرير النفس باش الوجه كأنه يتقبل الهدية ، يأخذ ولا يعطى — كما رأينا في الفصل السابق .

وأما الأعشى فقد مدح كثيراً ، وشكر كل من أهدي إليه أو أغدق عليه حتى جنح إلى المسألة والتكسب ، فقليل فيه إنه أول من سأل بشعره ، وهو يصف كذلك الشجاعة والكرم ، وأصالة النسب وحماية الجار وإغاثة المكروب ، ولا يخرج في صفات ممدوحه عن المثل العليا عند العرب والصفات الفاضلة المفضلة ، ويغالى في مديحه حتى يخرج عن حدود التصديق ، فيقول في هودة الحنفي :

فَتَى لَوْ يُنَادَى الشَّمْسُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارَى لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا

وهذه صورة بارعة في علو المقام وشدة الهيبة ، ينادى الشمس فتطيعه ، ويخاطب القمر فيلبيته ، ويضيف الأعشى إلى ذلك أن ممدوحه أحلم من قيس وأجراً من الأسد ، يستخف بالجموع ويستهن بالشجعان ويعدو وحده على الجموع ولو بلغ الرجال ثمانين . ويمتدح سلامة بن فائس أحد أمراء اليمن فيشيد بشجاعته وبأسه ، لأنه يسبي النساء فلا يدفع فيهن مهراً ، ويسوق النوق في الغارات إلى بيته لتقيم في فنائه وتضاف إلى ملكه ، وهو قوى معطاء يهلك ماله حين يشتد القحط في الشتاء وتهزل المرضعات ، فيجبر الشعب ويطعم الجائع ويكسو العارى ، فكأنه وحده مصدر جمعيات للإسعاف في عصرنا الحاضر ، يقوم بمفرده مقام الدول والهيئات ، وكذلك كان التعاون والتعاقد في نظر

الجاهلية ، وكذلك كانت المثل العليا في نظر الشعراء . وقصيدة الأعشى في
المخلق مشهورة ، ولو أنه لم يكن في الأمراء أو الوزراء ، لكنه وصفه كذلك
ورضعه في مصافهم ورتبتهم .

والحطيئة مدح الزبرقان بن بدر فخصه بكثير من شعره ، ورأى في آل لأى
سادة نجباء ، يردون على الجار ما يفقد ، ويعطونه حين يعطب ، وينقذونه من
الهلكة والتلف ، ولا يظهرن الامتنان عليه ، فيقول فيهم :

سيرى أمام فإن الأكرمين حصى والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذئاب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
قوم يببت قرير العين جارهم إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا (١)

فهم أكثر الناس عدداً وأكرمهم أباً ، في الذروة من السمعة والعزة ، يعيش
جارهم قرير العين موفور الكرامة مكفى المثونة ، وهذه أخلاق جاهلية كلها ؛
وكذلك مدحه في آل شماس ، يتناول القبيلة كلها فيرى أنهم ينعمون ولا يكدرن
نعمتهم بالمن والذكر ، شجعان مطاعين ، والحطيئة يمدح على طريق البداوة ،
فيرسم القوم والقبيلة وهو يمدح الرئيس والوجيه ؛ ويفصح عن عاطفة العرفان
بالجميل ، فيشكر العطاء ويثني على المال واليد ، فقد انتشاه من فقر وحاجة .

ومدح الفرزدق كثيراً من العمال والولاة والوجهاء في العهد الأموي فنظر
إليهم نظرة الشعراء الجاهليين ، فأثنى على الشجاعة والكرم وأصالة النسب . وقال
في بلال إن كفيه كالحيا تسقيان الأرض ، وإن العيس تسعى إليه كما يسعى
البشر ، وإنه كريم :

فكم من عدو يا بلالُ خَسَاتُهُ فَأَغْضَمْتُ لَهُ عَيْنٌ عَلَى مَا يَرِيئُهَا
رَأَيْتُ بِلَالًا يَشْتَرِي بِتِلَادِهِ مَكَارِمَ أَخْلَاقٍ عِظَامَ رَغِيئِهَا

فهو يقهر الأعداء ويشترى الحمد بالمواساة والعطايا . وكذلك يمدح الحجاج
وخالد بن عبد الله القسري ، يشكرهما على النعمة ويدعوهما إلى إنقاذه مما هو فيه
من ضنك في العيش وحاجة إلى المال .

وجريير ، مدح القواد والأمراء فأثنى على كرمهم وشجاعتهم وتكسب
بمديحه ، واتبع الأساليب العربية القديمة فيه ، فجعل الحجاج أنقب الناس
شهاباً ، وهدد به الأعداء ، فقال :

إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجَ أَثْقَبَهَا شِهَابًا
تَرَى نَصْرَ الْإِمَامِ عَلَيْكَ حَقًّا إِذَا لَبَسُوا بَدِينَهُمْ ارْتِيَابًا
ثم قال إنه ماض على الغمرات ، منع الرشا وأرى الناس سبيل الهدى ، ونكّل
باللصوص وشفى من الفتن :

مَنْ سَدَّ مُطْلِعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ « الْحَجَّاجِ » ؟
أَمْ مَنْ يَخَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً إِذْ لَا يَثْقِنُ بغيرِ الْأَزْوَاجِ ؟

وهذه أخلاق عربية ولدت مع هذه الأمة ، وظلت مثلاً أعلى لكل شاعر
عربي يرى في الكرم والسخاء والشجاعة والبطولة وحماية الجار والغيرة على النساء
والحفاظ على الأعراض ومنع الرشوة والفساد والتنكيل باللصوص وإشاعة العدل
والخير ، ما يمدح له الرجل ويثني عليه ويشاد بفضله . ولذلك لم يتعد المديح
في أغراضه هذه الصفات خلال العصر الأموي كله ، والعرب سادة في الحكم ،
وقادة في الجيش ، وحكام في الولايات والمقاطعات ، يمدون أعناقهم إلى ماضيهم
في الإباء والنخوة والحمية فيستحون أن يكونوا على غير ما كان عليه آباؤهم
وأجدادهم ، ويرى المداحون في الإبقاء على هذا الخلق العربي والتحلي بصفاته
مادة للمديح وواسطة للحمد والثناء .

ولما كان العصر العباسي ، توزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات ، وتفخّم الملك ، فكان في كل ولاية أمير وفي كل إقليم حاكم ، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون ويتقربون إليهم ويتكسبون عندهم ويطلبون قضاء حاجة وبلوغ أرب . فبشار حين مدح وزير المهدي ، اعترف بأنه طال انتظاره للثواب ، وحين توجه إلى غيره من آل برمك قال إنه حلب بشعره راحتي الممدوح فدرّ كما يدرّ السحاب مع الرعد ، ذلك لأن الأخلاق دبّ إليها الفساد فكثّر القول وراج التفاق ، وأصبح التصديق في محنة ، فلم يكن يؤمن الممدوحون بكل ما يقال ، وإنما كانوا يعدون الكلام بضاعة وتجارة يروّجها من يستطيع ، ويسيرها من أوغل في البيان وتصرف في الشعر ، من غير أن تصدر غالباً عن قلب مؤمن بما يقول ونفس مخلصّة فيما تنشد . وكان الشعراء يحسون هذا ، ويعلمون أنهم في حاجة إلى أن يؤكدوا المديح ، وإلى أن يسرفوا في التعظيم والمبالغة ، لعلهم يتألون ويعودون بالجائزة والعطية والمنحة فدخل المديح غلوّ عجيّب ، واضطر الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء في مدحهم إلى مرتبة الخلفاء والملوك ، وإلى أن يسبغوا عليهم أثواباً فضفاضة ، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء ، لتقارب الصور والصيغ ، وأحسّ الشعراء بهذا فحرّموا الإطالة في المديح وكرّوها الإسراف فيه فقال شاعرهم :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنبواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستق عند الورود لما أطال رشاءه

وأصبح المديح حرفة ومهنة ، يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال ، وغدا الفحول من الشعراء بكرهون أن يكونوا في سلك الشعراء ينظمهم اسم واحد لكثرة

ما ابتدل الشعر واقرن بالضعفة وخاصاً في القرنين الثالث والرابع ، فبنى أبو فراس
الحمداني عن نفسه صفة الشاعر وقأ ، :

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَامْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي وَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ

ذلك لأنه أمير يعتز بمكانه من العرب ونسبه في القبائل ، فلا يرى أن يسلك
مع هؤلاء المداحين الذين اتخذوا الشعر آلة للتكسب ، يحملون قصائدهم إلى
أبواب الوجهاء والوزراء والأمراء فيؤذن لهم بالوقوف بين أيدي هؤلاء ، وينشدون
قصيدهم ثم ينصرفون بصرة صغيرة أو كبيرة ، وهم بها مستبشرون فرحون . والمتنبى
تعاطم حتى اشترط أن لا يقف بين يدي ممدوحيه ، فأنشده قاعداً ، ولذلك سقط
الشعر ونزل عن صولجانه وعزته وكرامته لهذا المديح التجاري ، بعد أن كان
للشاعر المقام الرفيع تنهى القبائل بعضها بعضاً بنبوغ الشاعر وتفرح لنشيدته وتقوم
وتتعد لقلبه ، وانقضى ذلك الزمن السحيق حيث يمجّد الشاعر وتفرض الولائم
لمقدمه ، وتصنع الأفراح لانتقاله ، ويحل من الملوك محل الأخ والحدن والصديق
يحكم في أموال الملوك ويقرب كما قلنا . وذلك لأنه كان يخص شعره بالملك
والخليفة فلا ينحدر ولا يسفل ، ولكنه امتدح من دونهم وأصبح يبغى في صيده
الأسد والمهر معاً ، ويعود بغنيمة حيناً أو يرجع صفراً اليدين أحياناً ، كما قال المتنبي :

وشرُّ ما قنصته واحتي قنصٌ شهب البزاة سواءً فيه والرَّخْمُ

فكثر الفقر بين الشعراء ، وأصبح النقاد يقولون : « أدركته حرقة الأدب »
ومرد ذلك كله إلى هذا المديح الذي نعرض بعض صورته العباسية عرضاً سريعاً
لنتبين الغاية التي كان يهدف إليها من بلوغ المال وقضاء الحاجة والسعى في لقمة
العيش . وقد لازم العصور العباسية كلها ، وورثنا إلى اليوم نظرة الناس إلى
الشاعر المداح ، فلم يخلف الشعراء المعاصرون ظن النقاد وقلدوا العباسيين في
ذلك ، فأدركتهم حرقة الأدب كذلك ، وا ويلتاه ، وراحوا يمدحون إذا نالوا

ويهجون إذا حرموا ، كأنهم يحملون قيثارة المديح يميناًهم ليطربوا السامع ، فإذا
 رأوا فيه الصمم والغفلة عن نشيدهم تناولوه بسياط الهجاء ، وكذلك يختارون الدواء
 لكل علة ، ويجدون القول في كل ميدان .

وقد قال بشار في أمير من آل برمك ، يعده بالمدح ويطلب منه الكرم :

فإن تُعْطِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَأْبَ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيَّ سِدَادُ
 رِكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مُشِيْعٌ وَمَا لِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ

وهذه صراحة في السؤال لم نشهدنا في الأمويين والجاهليين قبلهم ، وطلب
 لم يعرض له الأجداد من شعرائهم بهذه السهولة وهذا الإلحاف ؛ وذلك لأن المديح
 يورث الغنى ويكسب الترف ويقتل العدم ، فيقول بشار :

لَمَسْتُ بِكَ كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى وَلَمْ أَذْرَ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
 فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُو الْغِنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَاتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذان البيتان أعجبا النقاد واستثارا مواطن التقرير في كتبهم ، لأن الشاعر
 يجد في الجود عدوى تنتقل من الأيدي إلى الأيدي ، فهي عادة تلتف الأموال .
 والشاعر يصف الممدوح بأنه موضع العطاء ، يصيب القريب والبعيد ماله
 ويخاؤه ، ويطعم الفقراء ويعيل الضعفاء :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَبُّ وَتُغَشِّي مَنَارِلُ الْكِرْمَاءِ
 لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْفِ وَلَكِنْ يَلْدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ

فالشاعر يهتدى إلى الممدوح كما يهتدى الطير إلى مواقع الحب ، فينشاه
 وينزل عنده لينال من سيده ذوالا خوفاً ، ولكن طمعاً بالذرة وسعياً وراء جمال
 العطاء ، وكذلك يبين الشاعر أن الممدوحين كانوا يعطون أحياناً عن خوف
 — كما كنا نقول قبل قليل — وقد تناول بشار في مدحه إلى هذا معاني القدمات في

الإعجاب بالشجاعة والسخاء وقتل الأعداء وخوض المعارك ، وأشاد بأن أميره صنعه ذا غنى وجعله ذا ثراء بعد أن كان يغوص في العدم والفقر يستجدي الأكف ويستندى النفوس . وكذلك كان العباسيون من الشعراء يطلبون العطية صراحة ويسألون الهدية إلخافاً ، ويقفون من الأغنياء موقف الصاغر المستنجد ، فامتألت كتب الأدب ودواوينه بهذا اللون من المديح ، واحتاج الكتاب والمؤلفون إلى أن يخصوا فصولاً من كتبهم بالهدية والعطاء ، فألف الخالديان كتاباً « في التحف والهدايا » جمعاً فيه ما قال الشعراء وهم يطلبون الهدية ، وما قالوه وهم يشكرون للمهدى ، وذلك ثقيل على نفوسنا في العصر الحاضر ، وقد أصبح للعزة والكرامة عند الكاتب الحر معنى بعيداً عما كان في نفوس كثير من هؤلاء الشعراء المدّاحين . فالسائل في عرفنا يشبه المستعطي ؛ يطلب بمدح ، ويشكر عند العطية بمدح ، حتى كان في الشعر شبيه بالأوراق التي تقدم اليوم في طلب الحاجة واستنجاز العطية وبيان فقر الحال ؛ ولئن ضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسي :

فأبو العتاهية يهدى إلى الفضل بن الربيع نعلا ، ويتمنى معها بشعر يرسله
إليه أن يشرك خدّه بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بِهَا لِتَلْبَسَهَا تَمَثَّى بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْدِ
لَوْ كَانَ يَصْدُحُ أَنْ أَشْرَكَهَا خَدَى جَعَلْتُ شَرَاكَهَا خَدَى!

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلاّ إذا كانوا في المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذلك تتصاغر النفس وتتضائل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلة ، ولكنها لن تقف من الوزير أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .

وظل الشعراء يبالغون في ذلك حتى قال أبو نواس في « الخصب » :

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكَلَاكُمَا بَحْرُ
وَيَحِقُّ لِي إِذْ صِرْتُ بَيْنَكُمَا أَنْ لَا يَحِلَّ بِسَاحَتِي فَقْرُ

وهكذا ينتجع الشاعر مرابع الأجواد ياتمسع عندهم النعم والعطاء ، يبدي ويعيد في ذكر فقره وحاجته ، لعله يبدل عسره إلى يسر ، حتى ليقول في الممدوح إنه أبوه كما قال أبو نواس :

وَكُنْتَ أَبَا سَوَى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي رَحِمًا أَوْ أَبْرًا مِنَ الرَّحِيمِ

ومسلم بن الوليد ، مدح الوجهاء والرؤساء كذلك فأجاد ، وأبان عن قصده المال والعطاء ، وركب الطريقة التقليدية ليبلغ إلى امتداح الشجاعة والبطولة ، فيقول فيه إنه قائد مغوار في سبيل الدين يكسب الحمد بفعله العظيمة ، وإنه يستصغر الدنيا إذا عرضت له في همة أو نائل أو موعد :

فَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي اللَّقَاءِ فِي النَّدَى مِنْ بَاسِلٍ وَرَدٍ وَغَادٍ مَرَعِدٍ
أَعْطَيْتَ حَتَّى مَلَّ سَائِلُكَ الْغَنَى وَعَلَوْتَ حَتَّى مَا يُقَالُ لَكَ أَزْدِدُ !

فهو شجاع وكريم ، بل إنه أسد في الحرب وصحابة في الكرم ، وقد أعطى حتى ملَّ السائل كثرة الغنى لعطائه فما يستريده ، وبلغ الذروة في الشجاعة والمجد فما وراءها ذروة . ومن أحسن مدائحه في يزيد بن يزيد ، حين مدحه بشجاعته في الحرب وعمله في القتال فقال :

بَقَدَّرْتُ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مَبْتَمِيماً إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهَ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مَوْفٍ عَلَى مُهْجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
يَدَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَغْيَا الرَّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ

بضحك في الحرب لأنه يعرف أنها أقل من همه وأصغر من أن تخيفه ،

والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها. ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضى على من يريد أو كالموت يستبطن ضحاياه لكنه يستقيم الكأس الأخيرة . وقد تعودت الطير أن تتبعه في كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جثث الأعداء وهاماتهم فيقرئها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة القدمات في احترام الشجاعة ، وتقديس البطولة ، لكنه يستعمل الصور البديعة والمعاني البليغة ، فيحلق في ذلك ويفتح الطريق لأبي تمام والمنتبي في رسم المدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والنهر ، وجعل المدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

وقلده أبو تمام في ذلك فلا ديوانه بهذا المديح ، وقدس كذلك البطولة في صور رائعة ، وصف فيها جلائل الأعمال في الحرب والسلم ؛ فقال في ممدوحه إنه فارس الإسلام يحيي نجدة ابن الوليد وشهامة الأبطال المغاوير ، وهو عجيب حين يشرك الناس معه في امتداح من يريد :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمتُهُ لمتُهُ وَحَدَى

فهو ينطق بلسان العالم ، ويتحدث بجنان العرب والمسلمين جميعاً ، يسرون معه في مديحه ، لأنه صادق لا ينطق عن كذب ، وقد وفق أبو تمام في مدائحه هذه حتى لنستطيع أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية تعدد البطولات وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها في كتاب لكانت أسبق من الشاهنامة في وصف الأجداد والمفاخر ؛ وهو يكثر في ديوانه من تعداد الأعلام التاريخية يضرب بها المثل ، وقد تبعه في ذلك الشعراء بعده ، قال أبو تمام :

إقدام «عمر» في سماحة «حاتم» في حلم «أحنف» في ذكاء «إياس»^(١)

(١) هو عمرو بن معد يكرب ؛ وإياس هو ابن معاوية ، كان قاضياً بالبصرة .

لا تنكروا ضربى له مَنْ دُونَهُ مثلاً شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس (١)

وهكذا جمع لمدوحه صفات القدماء والمحدثين من أبطال الدنيا العربية ،
وجمع من القرآن ما دعم به نظريته فى ضرب الأمثال والاستشهاد بالرجال .

والبحترى سار فى السبيل نفسه ، فجعل ممدوحيه مشاعل تضىء فى الكرم
تتوقد فتطفى الكواكب ، وسيوفاً مشهورة على الأعداء ، وشبههم بالربيع يجلبون
النور والزهر والعطر على الدنيا ، وأيادهم عنده مذكورة تزيد فى معانها على
الشمس (٢)

يَدُّ لَكَ عِنْدِي قَدْ أْبْرَّ ضِيَاؤُهَا عَلَى الشَّمْسِ حَتَّى كَادَ يَخْبُوسِرَاجُهَا

وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة فى مغالاة وإسراف ،
ترتفع على النجم وتخفى نور الشمس ، يغص بها ديوان البحترى فلا يقف لها
إحصاء ولا يوفىها عرض أو نقد . ومثله ابن الرومى فقد غالى كذلك وأسرف
فقال :

مهما أتى الناس من طول ومن كرم فإنما دخلوا الباب الذى فتحها
يُعْطَى المِزَاحَ وَيُعْطَى الجِدَّ حَقَّهُمَا فالموت إن جدَّ والمعروف إن مزحاً

وذلك يحيرنا ويجعلنا نتساءل عن مبلغ الصديق عند هؤلاء الشعراء ، وهل
نؤمن بما يقولون ؛ وعند ذلك نقع فى مشكلة مع التاريخ لانتهى فيها إلى معرفة

(١) يشير إلى الآية الكريمة فى قوله جل وعلا : « الله نور السموات والأرض ، مثل
نوره كشكاة فيها مصباح » - والمشكاة : كوة غير نافذة - والنبراس : المصباح .

(٢) مدح ابن الرومى أيادى الناس وأناملهم حتى قال فى ابن المدبر :

قبل أنامله فلن أناملا لكنهن مفاتح الأرزاق

أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؟ ومن هو الذى فتح الباب وغطى نور الشمس ؟
وارتفع فوق الناس ذكره واشتهر فوق العالم أمره ؟ حتى جاء المنتبى فبلغ بهذه
المغلاة درجة نضل معها فى هذه السبيل للموازنة بين الرجال وأقدارهم ، فقد قال
فى سيف الدولة :

قَدَلْتَنُفُوسَ الْعِدَى بِالْحَدِيدِ د حَتَّى قَتَلْتَ بِهِنَّ الْحَدِيدَا
كَأَنَّكَ بِالْفَقْرِ تَبْغَى الْغَنَى وبالموت فى الحرب تبغى الخلودا

وأرانا كيف يقتل الشجاع الحديد ويبلغ بذلك سدة الخلود . ورسم ممدوحه
كالبدر والشموس ، وجعل همهم فوق الهمم وبالغ حتى جعل البحرىستى من
كرمهم ، وقال فى فاتك :

أَبُو الشُّجَاعِ أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةٌ هَوُلٌ نَمَتُهُ مِنَ الْهَيْجَاءِ أَهْوَالُ
تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمَفْتَخِرٍ فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال

فهل يذكر المنتبى كم ترك لسيف الدولة بعد مدحه فاتكاً ؟ ! إنه يقول إن
فاتكاً تملك الحمد حتى ما لمفتخر حمد ، فلم يجعل أى فرق فى هذه المدائح بين
الممدوحين ، ولو جردت من عنواناتها لضلنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح
وطبقته من الأمراء والملوك والقواد لأنه كان يعتمد فى أقواله على المبالغة والتهويل ،
فيكبر الذاغير ويصغر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر فى ذلك عن
لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة ، وإنما على عقل ينصرف وفاق
الغاية والهدف والطموح .

ولم يختلف عنه الشعراء الذين جاءوا بعده أو عاصروه متأثرين بأساليبه ،
فقد كان السرى الرفاء وابن نباة السعدى ومهيار الديلمى يمدحون كما كان
يمدح فى صور قريبة من صوره يشنون على الشجاعة والكرم ، ويرسمون الوجوه
الباشة والأيدى الكريمة ؛ وقد زاد بعضهم فأرسل يمدح فى تهنته أو فرح بزواج

وولادة أو شفاء بمرض أو مناسبة عيد أو صيام رمضان ، كأنهم يسجلون الأفراح بمدائح لا تفتوهم منها شاردة أو واردة ؛ فهم الصحفيون الرسميون والمؤرخون في الشعر ، حين يلازهن ممدوحهم ويصدرون عن أحوالهم بلاغات لكل حادث طارى عظم أو أسف . ولذلك كانوا يعمدون غالباً إلى الإنكسار فيصورونه انتصاراً ، أو يخففون من وقعه وحدة الخزي فيه ، حتى يخيل للناقد المتبع أن الأعداء كانوا يفرون دائماً أمام هؤلاء الممدوحين ، ويولون الأدبار فيتولاهم الذل والخوف والجزع والرهبه ، وأما النصر والظفر والهيبه والإشراق والعظمة فكلها لهؤلاء الوزراء والأمراء والقواد ، لم نسمع ببطولة جندي معين أو شجاعة الرعية ، وإنما رأينا العجاج يثور والسيوف تفعل في الرقاب ولحنا العدو بعد ذلك بعضه يولى منهزماً وبعضه قد ملأ الأرض بجثته وقد حام حولها الطير ، فالمنية في أيدي هؤلاء الممدوحين يتصرفون بها كيف يريدون ، ويتزلون الضربات القاصمة على من يعادون . حتى ليتساءل بعض المستشرقين إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون الحروب أو أنهم لم يشهدوها ، فكأنهم يصنعون البيانات بالانتصارات يتقدمون بها كمنتهى لعودة هؤلاء العظماء إلى قصورهم ، يغدقون على شعرائهم من جديد ، فكأنهم يمطرون الشعب كله بكرمهم ويعمون الدنيا بخيراتهم ؛ ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الجيش يصاح بالأسر وحده وينتصر برأيه ، فإذا فسد أنهار الجيش كله . وقد أدرك أحمد شوقي هذه الفكرة في القرن العشرين فقال : « ولا الجيش إلا ربّه حين ينسب » ولعله استخلص ذلك من قراءته لأدب المديح فسار هو نفسه على هذه الخطة ، ولم يخرج بذلك عن تشبيهات القدماء ، ووصف قوة الوزراء وبسالة القواد ونظر إلى هؤلاء من خلال الدين وحماية الإسلام كما نظر العباسيون من قبل ، فأشاد بمصطفى كمال وشبهه بخالد بن الوليد ، وذكر تقاه وبلاءه وعظيم تفانيه مع قواده :

قَوَادُ مَعْرَكَةٍ وَرَادُ مَهْلِكَةٍ أَوْتَادُ مَمْلَكَةٍ أَسَادُ مُحْتَرَبِ
بَلَوْتَهُمْ فَتَحَدَّثَ كَمْ شَدَدَتْ بِهِمْ مِنْ مَضْمُحَلٍّ وَكَمْ عَمَّرَتْ مِنْ خَرَبِ

فبسط فضل هؤلاء الرجال الذين تعاونوا مع مصطفى كمال للوصول بالجيش إلى شاطئ النصر . وليس عجباً أن يمدح شوقي بطل الترك ، فقد كان يعجب بالبطولة أنى كانت ، فمدح القائد نابليون حين وقف على قبره بباريس ، ورسم عصاميته وبطولته حين اصطاد شاه الروس والنمسا ؛ ومدح سعد زغلول سياسياً وزعياً .

وشارك الشاعر إسماعيل صبرى فى مديح الوجهاء والوزراء ، فأشاد بصفات واصف غالى ، وأثنى على مواقفه الغر فى الدفاع عن الشرق والذود عن أمجاد العرب .

وقال حافظ إبراهيم فى سعد زغلول إنه زعيم النيل يفيض النور من طلعه ، وخلص البلاد يكون على يديه .

والشعراء المعاصرون فى الأقطار العربية يمدحون الوزراء والوجهاء ، والقواد ، وأرباب المناصب الوزارية العالية ورؤساء « الدوائر » ، ولكنهم يعتمدون على الصور القديمة وتعابير الأجداد ، وكثيراً ما يحولون الرثاء لهاته الشخصيات إلى مديح يعدّون فيه فضائل هؤلاء الرجال ومزاياهم وأعمالهم وكرمهم وبطولتهم ، ولن نعرض له فقد تناوله كتاب « الرثاء » فى هذه المجموعة ، وتستطيع أن ترجع إليه لترى كيف كانوا يمدحون وهم يرثون فى أساليب تشبه الشعر العباسى ، كما رسمناه قبل قليل .

الفصل الثالث

مديح العلماء والأدباء

امتدح الشعراء شعرهم بكثير من العجب والتيه ، فصوّروه دائراً على الأيام
يتنقل على كل لسان ويحلجل في كل مكان ، وظنوا أن شعرهم وحده جدير
بالتقدير تنبثق منه معاني غيرهم من الشعراء ، فهم الصوت والآخرون الصدى كما
قال المتنبي ، ولم يتخلف واحد منهم عن الإدلال بشعره ؛ ولعلمهم بذلك يذكرون
المدحوح بعلو قدرهم على الأقدار ورفعة شعرهم على الأشعار ، فلن يقول فيه قائل
أكثر مما قالوا ولن يبدع فيه أجمل مما أبدعوا ، فالنفيس يهدى إلى النفيس كما
قال أبو فراس . ومن الطريف أن نعرض لأقوالهم وأن نوازن بين مدائحهم لأنفسهم ،
ولكن ذلك أدخل في باب « الفخر » ، ولهذا الفن الأدبي كتاب في هذه المجموعة
يتطرق إليه ويتناوله بالعرض والتحليل .

ونحن هنا إنما نستعرض ما قاله الشعراء في غيرهم من الأدباء والكتاب
والشعراء ، لنقف على مبلغ إعجابهم بالعلم والأدب وصناعة الكتابة وفضل
القريض ، على اختلاف العصور ؛ فقد كانوا يجدون فيمن يمدحون صفوة الأمة
وخلاصة المفكرين فيها ، يثنون على قوة البيان وصدوبة اللسان وبقظة الجنان ،
وروعة القلم وحسن الكتابة .

فقد مدح بشار واصل بن عطاء (١) وأكثر فيه ، قبل أن يدين الشاعر
بالرجعة ففضله على غيره من العلماء ، حين سمع خطبة من خطبه فقال :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة في خطبة بدّهت من غير تقدير

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزالي ، المتوفى سنة ١٨١ ، كان من الأئمة البلاغ
المتكلمين ، وكان يبلغ بالراء لكنه في خطبه يتخلص منها ببراعته - انظر ابن خلكان .

وإن قولاً يروق الخالدين معاً لمسكت مخرس عن كل تحبير

وقال فيه كذلك يصف خطابته وطريقة لفظه ومجانبه الرء وهو الأثغ :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطباً ناهيك من خطب
فقام مرتجلاً تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الرء لم يشعر بها أحد قبل النصفح والإغراق في الطلب

فشبه ارتجاله بغليان المرجل واللهب يحفه ، فصور اندفاعه وتتابع كلامه من غير توقف أو تباطؤ ، وذكر تجنبه الرء في خطبه وأقواله ؛ وذلك يدل على دقة في التعبير وتنبه إلى واقع الخطيب ، في بيان فصيح .

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمي لحكمته وبلاغته وتدقيقه في خطبه كذلك :

هيئات أبدى اليقين صفحته وبان نبع الفخار من غربة
لقمان صمتاً وحكمة فإذا قال لقطنا الياقوت من خطبة

فهو في بيانه يشرق باليقين ، وهو في حكمته شبيه بلقمان ، فإذا تحدث نثر الياقوت ، فهب الناس يلتقطون الدرر . وأبو تمام كغيره من الشعراء يتخذ القدماء من يونان وغيرهم مثلاً علياً في الفلسفة والحكمة والعقل والمنطق ، يشبه معاصريه بهؤلاء الفلاسفة ، ويتخذ طريقة التشبيه المادية كذلك فيقرن العقل بالجواهر .

وأبو تمام مدح الشاعر الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات فقال فيه :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَابِهِ تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكَلِيِّ وَالْمَفَاصِلِ^(١)

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لِعَابُهُ وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلٍ^(١)
 إِذَا مَا امْتَطَى الْخَمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ عَلَيْهِ شِعَابَ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ
 أَطَاعَتِهِ أَطْرَافَ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ

فصوّر القلم حاداً قاطعاً كالسيف يصيب المقاتل ، بل إن لعابه سام
 كالأفاعى يخافه الأعداء ويحبه الأصدقاء ، ولأدبه صيت بلغ مشرق الأرض
 ومغربها ، يفعل فعل الجيوش فى الأعداء ، يقوض الخيام وينزل بالحصوم أقسى
 الهزائم .

وهذا وصف بديع لأثر البيان فى نفوس السامعين ، جعله الشاعر من القوة
 والهول ، بحيث قارنه بالجيوش الزاحفة والجحافل الجرارة . والبحترى مدح
 هذا الوزير نفسه فقال فيه :

لَتَفَنَّنْتَ فى الكِتَابَةِ حَتَّى عَطَّلَ النَّاسَ فَن «عبد الحميد»
 فى نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَكَ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامٌ فَرِيدٌ
 وَبِدِيعٍ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّاحِكُ حَكَ فى رَوْنَقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ
 مَشْرِقٌ فى جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخُذُ لِمَقِهِ عَوْدَةٌ عَلَى الْمُسْتَعِيدِ

فهو عنده يعطل بلاغة عبد الحميد الكاتب ، وهو فريد فى أدبه يحوى من
 البديع فى كتابته ما يحوى الزهر الضاحك فى الربيع ، يشرق فى جوانب السمع ما
 يؤذيه عود أو ترديد ، وما يمل سماعه المستعيد ؛ فيه حجج عظيمة تخرس الأعداء
 وألفاظ كريمة كالجواهر المفردة ، وفيه معان تفوق معانى الخطيئة ولييد بن
 ربيعة ، بعيد عن التعقيد قريب من المراد . وهكذا بسط جمال القول فشبهه
 بالعدراء فى جماله ، ووصف قوته وأثره فى النفس فجعله كالنعم الحلو تألفه الأذن

(١) الأرى : العسل - الجنى : كل ما يجنى - اشتارته : جنته وقطفته .

كما تألف الأبحان المطربة السامية .

وابن الرومي مدح الكاتب عبيد الله ، فرأى في قدرته على الكلام عجباً ،
لذا يأتي بوحشيه وآنسه :

وأنت الذي يدعو الكلامَ بقُدْرَةٍ فيأتيه وحشَى الكلامِ وآنِسُهُ
وقال فيه بقصيدة أخرى ، إنه إذا ما جرى في حلبة عربية تخلف عن شأويه
قيس بن ساعدة الأيادي وأكثم بن صيفي ، فهو ثاقب الفكر يصيب كبد
الصواب في آرائه . والمتنبى قال في علي بن عامر الأنطاكي إنه يجمع العلم والحلم
والحجا :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فلما التقينا صَغَرَ الْخَبِيرُ الْخُبْرُ
دعاني إليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر
فاستصغر الأخبار فيه حين لقيه ، ووجده أعلى سمياً وأعظم مقاماً لأنه على
شعر جميل ونوال منشور موفور . ومدح الكاتب ابن العميد ، وكان ضليعاً
في علوم الفلسفة والنجوم فقال :

يَتَكَسَّبُ الْقَصْبُ الضَّعِيفُ بِكَفِّهِ شَرَفًا عَلَى صَمِّ الرِّمَاحِ وَمَقْفَرًا
وَيُبَيِّنُ فِيهَا مَسَّ مِنْهُ بِنَانِهِ تِيهِ الْمَدَلُّ فُلُو مَشَى لَتَبَخْتَرَا
مَنْ مَبْلَغُ الْأَعْرَابِ أَنَّى بَعْدَهَا شَاهَدَتْ رَسْطَالِيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَسَمِعْتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ كَتَبَهُ مَتَمَلِّكًا مَتَبَدِيًّا مَتَحَضَّرَا

فوصف ابن العميد بالبلاغة والفصاحة ، وقال إنه يملك القلوب بحسن لفظه
فيتصرف فيها كما يريد ، وجعل قلمه أشرف من الرماح يحصل بها الشرف والفخر ،
وذلك لأنه لو مسّ أي شيء عداه لظهر فيه الكبر ومشى تيهاً شرفاً بمن مسه .
وهو في حكمته كأرسطو ، وفي بأسه كالإسكندر ، جمع بين العلم والملك والحكمة ،

وكان له من فصاحة البدو وظرف الحضر وقوة التفكير ، ما يشبه به بطليموس في الحكمة والمعرفة .

وذكر المتنبي في مديحه رسائل ابن العميد فوصف بلاغتها وجزالة ألفاظها ، فجعلها تفوق كل بلاغة وتعي كل فصاحة ، وهي في بأسها وقوتها كذلك تقتل الأعداء قبل السلاح ، كما قال من قبله من الشعراء . والمتنبي كغيره يتمثل الفضلاء القدماء في شخص ممدوحه فيرى كأنهم عاشوا في عقله وبعثوا في برده من جديد ، فقد كانوا يجدون المثل الأعلى في الفكر والحكمة والعقل عند قدماء اليونان - كما قلنا .

وأما الشريف الرضي فقد مدح صاحب إسماعيل بن عباد ، فرأى قلمه الماضي أجرى من العوالى ، وأجود منها ، فهو يحوك على القرطاس برداً متمماً :
 لِكِ الْقَلَمِ الْمَاضِي الَّذِي لَوْ قَرْنَتْهُ بِجَرَى الْعَوَالَى كَانَ أَجْرَى وَأَجْوَدَا
 إِذَا انْسَلَّ مِنْ عَقْلِ الْبَنَانِ حَسْبَتُهُ يَحُوكُ عَلَى الْقُرْطَاسِ بَرْدًا مَعْمَدًا (١)

وبذلك قرن قلمه بالرمح ، وشبه كتابته بالثياب المشاة . وأما التهامي فقد مدح الوزير المغربي الداهية المشهور ، والكاتب الفحل فرأى في كتابته صفو الكلام وبين هوله وقوته :

تَقَلَّمَ أَقْلَامُكَ الْحَادِثَا تَ قَسْرًا وَتَهْمَ نَابَ النَّوْبِ

وجعل حكمته موروثه من آبائه الفرس ، كساها الوزير لفظ قريش ، فجمع المعنى المحكم والأسلوب الرصين ، وكان في بيانه سيد الكتاب . وقد تطوّر مديح العلماء والكتاب على العصور ، فأصبح الشعراء يعددون أنواع المعرفة التي يجيدها الممدوح ، وبذلك أسفوا إلى درجة النظامين . فقال القادري يمدح السيوطي :

(١) العقل : السجن - الممد : الموشى على هيئة العمدان .

ومعرفة الإعراب أرفع مرتقى فطوبى لمن يرقى إليه ويصعدُ
وعلم المعاني والبيان كلاهما مراق إلى علم البديع ومصعد

* * *

وزاد هذا اللون من المديح في أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين حتى ابتدل ابتداءً ، فأصبح الشاعر يمدح رسالة تصله أو رقعة تبليغاً أو كتاباً يتصفحه ، وامتلأت الدواوين بما سموه «تقريظ الكتب» حتى لكأن المؤلفين أنفسهم يطلبون ذلك من الشاعر ، كما يطلب آل المولود شيئاً من الشعر في مديحه يفتتحون به حياته ، أو كما يطلب المتزوجون قصيدة لزفافهم ، فكان المداحون يعمدون إلى تلبية هذه الرغبات والأمنيات ! ويضيفون إليها ما سموه بتأريخ هذه الأحداث ، فاستعملوا حروف الجمل بحيث يكون مجموع الحروف الأخيرة معادلاً لتأريخ هذه المناسبة . وليس هذا من الشعر في شيء إنما هو نظم وتقفية ، يطلبه الطالبون فيلبى النظامون من غير شعور أو عاطفة أو إحساس بما يقولون ، فهو مصطنع متكلف مزيف ، يشبه بهذا الإنشاء الذي يكتبه المأجورون في نميقة ترفع إلى الحاكم ، أو طلب يرسل إلى الحاكم ، أو رسالة تسطر باسم رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ؛ لا تعبر عن نفس كاتبها في شيء . وليست تدخل في موضوع بحثنا هنا ، لأنها ليست من الأدب ، فهو في عرفنا يجب أن يصور نفسية الأديب وحاله حين كتب .

وقد تطرق بعض شعرائنا في القرن العشرين إلى مديح العلماء والكتّاب والشعراء ، وخص صفحات من ديوانه بشيء من ذلك ؛ نورد أمثلة منها لبيان صورة المديح لهذا العصر . ومنهم إسماعيل صبرى ، فقد أكثر من هذا اللون ، وأسهب فيه ، وعزيز علينا أن نحصى ما قال وأن نعرضه جميعه ، فقد مدح كتاب السفر لأحمد زكي ، وكتب إلى صاحبة مجلة يثني على همتها في صحيفتها ، وأرسل إلى شوقي يهنئه ، وإلى محمود خاطر يشكره على مختصر القاموس في اللغة .

وإلى حافظ عن كتابه ليالى سطيح ، وقرظ دواوين الشعراء أحمد نسيم والبارودي
وفؤاد الخطيب وشوقي وحافظ ومطران وأحمد الزين ، وقال في ديوان أحمد شوقي :

مرحباً بالقصيد يتلوه للشعر ر أميرٌ يُصغى له أمراءُ
وما نجد في أقواله هذه أو مقطعاته جمالاً أو بياناً أو سحرًا ، وإنما نرى أنه
شعر ينخفض عن مستوى شعره .

وحافظ لإبراهيم امتدح كذلك ، ووصف الإمام محمد عبده بأنه محا في
الدين كل ضلالة ، وحلّ عقد المشكلات في الإفتاء ، وأن الناس التفوا حوله ،
كأنه ابن الخطاب أو عليّ بن أبي طالب . ومدح الشاعر محمود سامي البارودي
بأنه سلب بحار الأرض درّ كنوزها ، وصير منشور الكواكب في الدجى نظيماً
منضداً بأسلاك معانيه ؛ وأبياته إذا ما تلاها الناس خروا لها سجداً . وامتدح شوقي
فجعله بلبل الشعر الصداح ، ثم قال في شوقي وصبري إنهما أعادا عهد الرشيد
بآيات شعرهما وملاً المشرق حكمة وبياناً . وامتدح طه حسين وأحمد لطفى السيد
ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق البكري والمويلحي وأحمد حافظ عوض وأصحاب المقتطف .
وقال في مطران إن النثر مشى خاضعاً إليه وألقى الشعر إليه الزمام ، وعقد له ألواء
على الشعراء وبابعه بالإمامة فيهم . ولم يقف مدحه على الأدباء من العرب وإنما
تناول رجال الغرب فمدح شكسبير لآثاره الراقية مثل روميو وجولييت ومكبث
وشيلوك وهملت ، وقال إنه مولع بتصوير الطباع ، وهنأ أمة التاميز به ، كما هنا
الفرنسيس بفيكتور هوغو .

ومدح أحمد شوقي كثيراً من العلماء والأدباء من غرب وفرنجة ، وأشاد
كذلك بفضائل أديبهم وكتيبهم ، وتحدث عن نهضة العلم في الأزهر . وكان
يقول كزيميله حافظ مديحاً لكل مناسبة تعرض ، فقد أخذ العرب عن الغربيين
عادة الحفلات التكريمية يرسلون فيها الشعر والنثر ، لبلوغ سن معينة أو نجاح في
مشروع أو افتتاح لمصرف أو إقامة بنيان جديد أو تأسيس جامعة جديدة .
لذلك أرسل مديحه في واصف غالى وذكر ما له من أياد في كتبه الفرنسية .

ومقالاته في التعريف بالعرب ، وقال في أدبه إنه ذو شرك تحاذر الغيد منه ،
وأنه في نظامه كفلك الليل إذا تحلى بالزهر . وقال في أحمد لظني السيد مادحاً
ترجمته « لكتاب الأخلاق » عن أرسطاليس ، فذكر الفيلسوف اليوناني وحكمته
وأثنى على المترجم لجمعه بين لغة الإغريق ولغة تميم ، فقال :

أرج الرياض نَقَلْتَهُ وَنَسَخْتَهُ نَسَخَ النَّسِيمِ
وَسَرَيْتَ مِنْ شَعْبِ الْأُمِّ بَهِ إِلَى وَادِي الصَّرِيمِ (١)
فَتَجَارَتِ اللُّغَتَانِ لِمَايَاتِ فِي الْحَسْبِ الصَّمِيمِ
لُغَةٌ مِنَ الْإِغْرِيْقِ قِيَّةً مِمَّا وَأُخْرَى مِنْ تَمِيمِ

وهذا من النثر المقفى لا يلحق بأذيال الشعر ولا يلزم به ، ولكنه جديد على
الأدب العربي في مثل هذا الشكل وهذا الأسلوب . فعاض فيه الشعراء على أنه
نبي جديد وفن يتسابق فيه الشعراء والنظامون ، وينشرونه في الصحف ويذيعونه
على المنابر ، فهتز الأكف حين إلقائه ثم تحمله الريح مع الغبار الذي ثار
والعجاج الذي هب .

وامتدح شوقي صديقه المؤرخ إسماعيل رأفت نثراً وشعراً ، ولكنه ذهب
إلى حكمة الدنيا ، وتقلب العالم وفناء الأموال والأشخاص ، معتبراً بالتاريخ ،
فنتشبه بأقوال قس بن ساعدة : « من عاش مات ومن مات فات » . ولشوقي
تمصائد في شكسبير وفي هول كين ، وفي مدح المؤتمرات الجغرافية . وهو في ذلك
كله يقدس العلم والعلماء ، ويشيد بالمعلم ، فيرى أن الأنبياء معلمون ، وأن الله
خير معلم علم بالقلم القرون الأولى ؛ وأشاد بالأخلاق الرفيعة من وراء ذلك كله ؛
وانتقل من العلم إلى صناعة التعليم ومن الأدب إلى صناعة التأليف ومن الحكمة
إلى مترجمي الحكمة ، فمدح الرجال الذين يقومون بهذه الصناعات وأشاد بأعمالهم

(١) الألب : من جبال اليونان - الصريم : واد من أودية العرب .

وما تخلف أعلامهم من بيان وإرشاد وتقى وصلاح .

* * *

وخلال السنين الأخيرة قام في العالم العربي شعور بإحياء مفاخر الأجداد والاحتفال بأعياد مولدهم ووفاتهم ، تقليداً للغرب ، وذكرى مرور ألف عام على هذه الأحداث . وكان في الظن أن تكون رثاء خالصاً وأسفاً عميقاً لفقدهم . ولكن الرثاء انقلب إلى تكريم ومديح فدخل في هذا الباب من أقوالهم ما نعهده في مدح العلماء والكتاب ، وأصبح لزاماً أن نعرض لهذه الحفلات بكلمة موجزة نبين فيها هذا اللون من القول . وقد أقام العرب حفلات للمنتنبي والمعري وابن سينا وغيرهم ، وأرسلوا في هؤلاء من الشعر والنثر ما يحسن أن يكون صفحة جديدة لهذا الباب . فامتدح الشعراء في أبي العلاء عمق التفكير وسمو التعبير ، وعيشه المتواضع بعيداً عن لذة المرأة ، فقال فيه محمد مهدي الجواهري وشفيق جبري وبدوي الجبل ومحمد البزم . وقد رسم محمد البزم ثورته على الملوك ، وبقظة العروبة في ديوانه فقال .

مَلَّتْ خِيَاشِيمَ العُرُوبَةِ نَعْرَةَ تنوحيّة يُزهي بها من تخامرهُ
وسَعَرَتْ في أحشائها الوَقْدَ للذّي يردّ لها عرباءها لا تناظرهُ

وترى أنهم مدحوه كأنه حتى يسمع نشيدهم وقصيدهم ، فبرهنوا على معرفة وذكاء ، وقالوا ما لم يقله القدماء ، فأنشأوا في شعرهم ما يقوله الناثرون في نقد الأديب وتعريف أدبه ، وأعادوا على المعاصرين عهد عكاظ في التنافس على غرض واحد ؛ فافتخروا بالتراث الذي يملكون من فكر قوى وأسلوب عظيم ، واستطاعوا أن يجدوا في العصامية عند المتنبي وطموحه مجالات للقول ، اشترك فيها شعراء العراق ومصر والشام ، وكتّابهم ، والمستشرقون كذلك ؛ فعشنا كأننا في الغرب نقيم الحفل للتكريم والدراسة ، ونصنع ما صنعوا ، فنطبع آثارهم ونحجي كتبهم ونوزعها في المثقفين لبيان الفضائل والمزايا ، فكانت ثروة جديدة

تجمع في كتاب واحد ما قيل في المديح حول شاعر واحد أو كاتب واحد ،
تخرجه المجامع العلمية أو جامعات عربية أو جمعيات أدبية ، وهذا جديد في باب
لم يألفه القدماء ، أشرنا إليه إشارة عابرة لأننا رأينا أنه ألصق بباب المديح من
غيره ، يحسن التوسع فيه لو كان في الصفحات موضع لقول مفصل أو دراسة متوسعة .

الفصل الرابع

المديح الديني

١ - الله جل جلاله

خلق الله الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أباديه ونعمه ؛ فأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته في خلقه ، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات في مديحه والاعتراف بجبروته وقوته وخيراته وفضله على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وجماد . ولذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فراؤا في الطبيعة سرّ جماله وفي تكوين الدنيا جمال عظمته . وبهذا كثر المديح وتنوع فكان حيناً مديحاً سطحياً ، وحيناً مديحاً عميقاً ، وأصبح في كثير من الأحيان مديحاً صوفيّاً فاتخذ لوناً آخر من ألوان الأدب لا نعرض له في هذا الكتاب إلاّ لماماً .

ولنما نعرض قبل كل شيء ما كان من مديح ديني خالص ، فنبسط صوراً ونماذج قليلة تلخص هذه الألوان الكثيرة التي كانت منذ فجر الدنيا العربية تصلى للإله وتدعو له ، فلن نستطيع إلى عرضها كلها ، ولكننا نقتصر على شيء منها . فقد قال حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي بِذَلِكَ مَا عُمِّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلٍ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ الْخَلْقَ وَالنِّعْمَاءَ وَالْأَمْرَ كُلَّهُ فإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

فأنت ترى أنه اتخذ الألفاظ التي يرددوها المؤمنون في صلواتهم وفي عبادتهم

فاستعمل المديح دعاء لله خالقه يشهد بفضلها ما عاش ، وليس سواه من خالق .
وأبو العتاهية أكثر من مديحه للإله جلّ وعلا ، فكان الزاهد المتعبد الموحد :

أيا عجباً كيف يعصى الآلآ ه أم كيف يجعده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحدُ

فهو يرى عظمة الإله في كل شيء ، مما يلمح وينظر ، وهو يحمده ويعبده
كما فعل حسان سواء بسواء فقال :

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبودٍ ويا خير مَسْئُولٍ ويا خير مَحْمُودٍ
شهدنا لك اللهم أن لست محدثاً ولكنك المولى ولست بِمَجْحُودٍ
وأنت معروف ولست بموصوف وأنت موجود ولست بمحدودٍ

ويضيف في قوله كما نرى الفكرة التي بلغت إلى أبناء عصره من نظرة جديدة
إلى الإله ، وفلسفة جديدة في الوجود ، وتعابير طرأت على هذا الضرب من المديح
حتى كانت نواة للتصوف فيما بعد .

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني ، يكبرون
الجمال والكمال في خلق الله ، كما فعل أبو نواس حين وصف النبات ، وكما
فعل ابن الرومي وأبو فراس . وقد تطور هذا المديح حتى أصبح أقرب إلى النسب
حين ينشد الشعراء المتصوفة في حب الإله ، ويرمزون إليه بالحبيب ، ويعنون
في عشقه والتقرب منه ، فيجدون فيه نوراً وأصلاً وسبباً ، ويدخلون الفلسفة
والعقل والتصور في شعرهم ، فيخرج ذلك من حدود المديح الخالص إلى فن
التصوف ، وله كما قلنا كتاب خاص يبحث فيه ، تجد فيه الهيام بحب الله
والاستغاثات والأدعية وغيرها مما تجده في كتب المتصوفة ودواوينهم كابن
الفارض وابن عربي والحلاج وفي شطحات هؤلاء العلماء .

وامتدح الشعراء الأنبياء كلهم فقالوا في آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، مما تجده في كتب الأدب ومختارات الشعر كالثعالبي وغيره . ولكن هذا المديح كان يعرض لبعض الشعراء في بعض الأحيان لم يتتابع على العصور ، ولم يتطور كما تطور الشعر في مديح المصطفى خاتم الأنبياء ، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله وبيان أياديه على الإسلام والإشادة بمحامده ، فقد أدمجوا مدح الرسالة الإسلامية بمديح الرسول ، ولم يفصلوا بينهما في كثير من الأحيان ، لذلك جعلناهما في باب واحد ، نعرض فيه ما قيل من شعر ونبسط نماذج منه على اختلاف الأزمان .

٢ - المدح النبوي

كان العرب يعيشون في أطراف الأرض على نظام عجيب وأسلوب غريب ، لا تجمعهم دولة ، ولا يلمهم سلطان ولا ينظمهم قانون واحد ، يدينون طوراً بالنصرانية وحيناً بالوثنية أو اليهودية، مشعبة آرائهم ، مختلفة مذاهبيهم ، يخضعون لكسرى أو لقيصر أو لما تحتمها من نفوذ ، ويحيون على عشائر وقبائل تتناحر وتتصادم ، يختلف إليها البؤس والتشريد والجور ، فكأنها تنتظر زعيماً يجمع شملها وقائداً يفيد من شجاعتهما ، وإماماً يوحد بين آرائها . فلما ظهر محمد - صلى الله عليه وسلم - في قريش ودعا إلى وحدة العرب واتحادهم ، واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة ، لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفد قواهم واستعمار يستلهم ويسترقهم ، هزت دعوته القبائل ورؤساءها ، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها ، فوقفت بين مصدقة ومكذبة ، حتى إذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع ،

ومن مقدرة في البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش ، هالها أمره وأذهلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه وانصرف بعضهم عنه ، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه ، كما وقف شعراء في الدفاع عنه وامتداحه . وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشماله ورسالته ، وهو حي ؛ فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين والإسلام . ونحن إنما نعد هذا من المديح لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي كأنه موجود حي يناديه ويناجيه فيسمعه ويلببه ، ولأنه يحقق مبادئ هذا الفن ، من تمدح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزاياه وإعجاب بصباحة وجهه ، فقد قال الصفدي في شرح لامية العجم يصف المديح : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح » وقد رأينا كيف مدح الشعراء ملوكهم وأمراءهم وحكامهم ، فوقفوا عند هذه الصفات ؛ ولذلك لن يضيرنا أن هذه القصائد قيلت بعد وفاته ، فهي في مديحه . وأما ما كان من أبياتها في الأسف لفقدته والبكاء لذهابه فقد طرحناه لأنه في الرثاء ، وله كتاب مخصوص به .

جاءنا أن النابغة الجعدي أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها رسول الله فقال :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتَلَوُ كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا
أَقِيمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْذَرًا

فالرسول جاء بالهدى ودين الحق يتلو القرآن نيرا كالمجرة في السماء ، يأمر بالتقوى والفعل الجميل ، وقد آمن النابغة وقام بالدين خوف النار المخوفة .

وجاءنا كذلك أن الأعشى مدح الرسول بقصيدته الدالية ، يريد بها وجه النبي ، لكن قریشاً صرفته عن لقائه في رواية يعرفها المتأدبون ، ليس هنا محل بسطها ، فانصرف عنه وبقيت القصيدة في مديحه يقول فيها :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ
أَغَارٌ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجِدُنَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغْبُؤُا وَنَائِلٌ
وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدَا

وهكذا امتدح الندى والجود على عادة الجاهليين ، وبسط ما للنبي من ذكر عاطر سار في الأغوار والنجود ، فطاف البلاد وعمم الأقطار ، وله صدقات لا تنقطع ، وعطاء لا يفتر ، يبذل الخير لكل قاصد وطالب . وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات ، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق . ولعل ذلك لأن الأعشى بعيد عن فهم الدين ومبادئه ، أو لعله لم يألف هذا اللون من المديح الديني ولم يسمع به من قبل ، فلما حاول أن يقول نطق به على عادة الجاهليين كما رأينا في الفصول السابقة ، لا فرق عنده بين زعيم ديني ورئيس قبيلة أو سيد في قومه وعشيرته .

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان ، وقلدها الشعراء على العصور . بدأها بالنسب الخالص ثم وصف ناقته ، وانتقل بعدها إلى الرسول يمتدح ما يحمل إلى المسلمين من قرآن جليل . ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبي لما بدر منه ، فقال :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
مَهَلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلِ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلٌ

فرسول الله كريم متسامح يقبل العفو والمعدرة ، وهو الذي حمل إلى المسلمين هدية كبيرة هي القرآن وفيه المواعظ البالغة وما يحتاج إليه المسلمون في أدورهم ، فينب فضل الرسول بالإشارة إلى عظيم رسالته ، وبين كريم يده بالدلالة على واسع هديته ، ثم انتقل إلى وصف النبي وهيبة مجلسه ومقامه :

لَذَاكَ أَهْيَبٌ عِنْدِي إِذْ أَكَلْتُمَهُ وَقِيلَ : إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْتَوْلٌ^(١)

(١) منسوب : أى مستول عن نسك .

من ضَيِّعَمٍ مِنْ ضَرَاءِ الْأَسَدِ مَخْدَرُهُ ببطن «عشر» غيلٌ دونه غيلٌ^(١)

فالرسول عنده أهيب من الأسد الخادر المفترس ، يبعث الروح والفرع في النفس ، قد أقام في الغياض فما يلقاه قلب إلا جزع وهلع ، وهكذا جعله في الشجاعة والقوة والبأس حتى ما يوازن به إلا هذا الأسد العظيم في الروعة والهيبة . وقد صدق هذا الوصف قول الإمام علي بن أبي طالب في نعته ، إن جلساءه كانوا يقعدون منه كأن على رؤوسهم الطير لا يتنازعون عنده الحديث ولا يسفون في المقال لأنهم كانوا يرددون منه ويضطربون بمحضره ، فقوله هو القول الفصل وما هو بالهزل . وكعب بن زهير بعد أن وصف الرسول قال :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يَسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ مَسْبُولٌ

فهو سيف مطبوع من أشرف سيوف الهند وأفضلها مضاء ، لأنه سيف الله أرسله إلى العباد باسمه ، ليفصل بينهم ويحكم في أمرهم ، وسله على المشركين وسلطه عليهم ليقطع به دابر الفوضى والشرك . وهذا منتهى المديح العربي القديم ، إذ بسط الكرم والفضل والعفو والتسامح والبأس والشجاعة في شعر متين ملائ بالصور الضخمة والتعابير المتينة ، فجعله سيداً مطاعاً ورئيساً مهيباً ، وإماماً يحمل القرآن إلى البشر ، ويتحلى بخير السمائل والصفات من تسامح وندى ورحابة صدر .

وحسان بن ثابت كان شاعر النبي حقاً ، امتدحه لصفاته الفاضلة ورسم الدين الإسلامي رسماً موفقاً فقال :

وجبريلُ رسولُ الله فينا وروحُ القدس ليمس له كفاءً
وقال الله : قد أرسلتُ عبداً يقول الحق إن نفع البلاء

(١) مخدره : مكانه - عشر : موضع - الغيل : الغيضة .

شهدتُ به فقوموا صدقوه فقلتم : لا نقوم ولا نشاء

وفي هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبي ، ودعا إلى تصديقه والإيمان به فرسمه نوراً يشع على العباد ورسولا هادياً إلى الرشاد ، يهدي العقول الضالة والأحلام الشاردة ، من يتبعه يرشد :

لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابٌ هَدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبٌ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى الْغَدِ

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها ، وفي ركابه الهدى والسعود ، يتلو كتاب الله في كل مسجد ؛ وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصدق رسالته وتسير بهديه . وهذا كله مديح ديني يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ، ويشيد بالإيمان ، ولكنه حين يمدح شخص النبي يختار الصورة المثالية للرجل في خلقه وفي خلقه ، فيراه أحسن الناس وأجملهم :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وهذا إعجاب ليس له حدّ بجمال الرسول في خلقه ، فهو أجمل الناس طراً لا يستثنى منهم أحداً ، وهو أكملهم ، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد ، فقد خلا من هذا وهذا ، فكان الكمال المحجّم ، والخلق المصنّف . وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة المديح عند العرب القدماء ، يضيف إليهم مديحه الديني الخالص حين يقول في تلخيص الديانة الإسلامية :

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِيَّةِ خَاتِمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيُشْهَدُ

وَضَمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه
 وَشَقَّ له من اسمه ليجلَّهُ
 فذو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ
 من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبدُ
 نبيُّ أَتانا بعد يأسٍ وفترةٍ
 يلوح كما لاح الصنقيل المهنَّدُ
 فأَمسى سراجاً مستنيراً وهادياً
 وعَلَّمنا الإسلام فالله نَحْمَدُ
 وأنذرنا ناراً وبشر جنة

فالنبي كريم في أفعاله مشرق في خصاله ، عليه طابع النبوة واضح ظاهر ،
 وقد كرمه الله فقرن اسمه إليه ، حين تتلى الشهادة في الصلوات الخمس لكل
 يوم . وجعله منقداً للعرب جاءهم بعد يأس من الرسل ، وفترة من الضلال
 بالأوثان ، فأثار لهم سبيل الحق وهداهم إلى الخير ، وبشر بالجنة وأنذر بالنار ،
 فبسط الإسلام وعلم الناس كيف يحمدون آلاء الله ونعمه . وما نبى حسان يبسط
 فضل النبي على البرية ويده على العرب ، يعدد مكارمه وأخلاقه ، ويشبهه
 بالهلال في نوره ورحمته للعباد . ويرسم ما له من فضل في النصر والظفر في غزوات
 العرب ومعاركهم وانتصاراتهم على الأعداء . وهكذا جمع حسان في ديوانه سيرة
 الرسول ومفاخره ومحامده وأباده في السلم والحرب ، في الدين والدنيا معاً .

وظل الشعراء يفعلون كما فعل حسان على مدى العصور ، سواء فيهم من
 تدين أو من لم يتدين ، وقد أنشد أبو العلاء المعري في القرن الخامس في الدين
 الإسلامي وفي الرسول ما يشبه قول حسان على بعد الزمان بينهما فقال :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ
 وَكَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَاءِ كَالسَّوَابِلِ
 حَدَاكُمْ عَلَى تَعْظِيمِ مَنْ خَلَقَ الضَّحَى
 وَشَهَبَ الدَّجَى مِنْ طَالِعَاتِ وَأَقْلِ
 وَأَلْزَمَكُمْ مَا لَيْسَ يَعْجِزُ حَمْلَهُ
 أَخَا الضَّعْفِ مِنْ فَرَضٍ لَهُ وَنَوَافِلِ
 وَحَثَّ عَلَى تَطْهِيرِ جِسْمٍ وَمَلْبَسِ
 وَعَاقَبَ فِي قَذْفِ النِّسَاءِ الْغَوَافِلِ

وَحَرِّمَ خَمْرًا خَلَّتْ أَلْبَابُ شَرِّهَا مِنْ الطَّيِّشِ أَلْبَابُ النِّعَامِ الْجَوَافِلِ

فمدح الرسول برسالته ، وعدد الفروض والنوافل ، ونخص أركان الدين من طهارة وعبادة ، وتحريم للخمر وذهاب مع الرشاد والخير . وسار على غراره كثير من الشعراء حتى كان القرن السابع للهجرة ، فوضع محمد بن سعيد البوصيري عدداً من القصائد في مدح الرسول وأطال في بعضها حتى بلغ في الحمزية ما ينيف على أربعمائة بيت ، بسط فيها حياة النبي وفضائله ومزاياه ، ومعجزاته ، ورسم مولده في ليلة غراء ، وضعته فيها آمنة بنت وهب ، فنالت من فخار ما لم تنله النساء ، وشرفت به بنات حواء ، وأتت قومها بأفضل مخلوق ، ثم بسط النسب الشريف ، وذكر خوارق الولادة ، ووصف تداعى الإيوان وانطفاء النار ، وبسط المعجزة الكبرى في القرآن من رقيق اللفظ ورائق المعنى ، كأنها الحب والنوى أعجب الزراع وأدهش القراء حتى حسبوا أنه سحر، وقد قال في شمائل النبي :

سَيْدٌ ضَحِكَهُ التَّبَسُّمُ وَالْمَسُّ يُ الْهُوَيْنِي وَنَوْمُهُ الْإِغْفَاءُ
مَا سِوَى خُلُقِهِ النَّسِيمُ وَلَا غَيْهَ رُ مَحْيَاهُ الرَّوْضَةُ الْغِنَاءُ

فهو متلد في مشيته ، جميل في تبسمه ، خلقه كالنسيم رقة ، ومحياه كالروضة الغناء اثناً ، وسع العالمين حلماً وعلماً ، فهو بحر خضم زاخر بالمجد والخلق الرفيع ، ولذلك خضعت لدينة الأقسام وسارت إلى رايته الأمم . والقصيدة كلها على هذا النمط من المديح الديني تصور الإيمان والخشوع والتقوى والورع والتشفع والرجاء ، والتعلق بأهداب الدين والفرح بالرسالة ، وهي مهداة إلى سيد الرسالة كباقة من أفكار دينية تتقدم يوم الحشر لتشفع لصاحبها يوم تجزع النفوس وتهلع القلوب .

وفي قصيدة أخرى ، ذكر سبب نظمها (١) في مدح النبي فقال : إنه قد

(١) رواية ابن شاعر الكتبي في تاريخه .

أصيب بفالج أقعده ، فدعا إلى الله وتشفع ، فلما كان في نومه رأى النبي فسح وجهه بيده المباركة ، وألقى عليه بردة ، فانتبه فإذا هو قد شفي من مرضه ، فنظّمها وسمّاها لذلك بالبردة ، تيمناً وتبركاً . وسارت قصصها فأنشدها الناس كذلك تيمناً وتبركاً . والقصيدة تنيف على ثمانين بيتاً ، فيها صلوات على النبي ووقوف الأنبياء ببابه يلتمسون الرضا ويتشفعون ، وكلهم يعرف حده :

وكلّهم من رسول الله ملتمسٌ عرفاً من البحر أورشفاً من الدّيم
وواقفون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكيم

ثم يصفه كرجل وبشر فيقول :

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلّهم
أكرمٌ بخلقِ نبيٍّ زانهُ خلقٌ بالحسنِ مشتمل بالبشرِ مُتّيم
كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في هم
كأنه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وقد جمع البوصيري في هذه الأبيات كلّ ما قال القدماء في المدوحين ، فصور جمال خلقه وكرم أخلاقه في حسن وبشر ، وشبهه بالزهر والبدر والبحر والدهر ، وصور هيئته كأنه في عسكر عزمم وفي حشم كثير . وتحدّث بعد ذلك عن معجزاته في إيوان كسرى ونار فارس وبحيرة ساوة ، وتساقط الشهب وسجود الأشجار ، وسير الغمام وصنع الحمام ، ممّا تناقله كتب السيرة . وتكلم عن القرآن ووصف الإسراء ، وعدد الغزوات ، وختم بالرجاء والدعاء والتماس الشفاعة .

وقصيدة « البردة » هذه ، حفظها الأجيال الإسلامية في أقطارها ، ورتلتها في مناسباتها الدينية ، وتولّتها المطابع في الشرق والغرب ، وشرحها الشارحون منذ

القرن الثامن حتى اليوم شروحاً عدة يعيينا حصرها هنا ، وشرطوها وخسوها وسبغوها . وقد عارضوها مع ذلك على مدى العصور فقلدوا معانيها الجاهمة وأبياتها الرائعة ، فكانت سبباً لميلاد خزانة في مديح الرسول عامرة بالكتب والشروح والبديعيات ، ومن أشهرها بديعية ابن حجة الحموي وقصائد ابن نباتة المصري . وولدت قصص المولد ، تنثر هذه المعاني الدينية وتستعمل صورها وفرداتها وتتضمن بعض أبياتها .

وهذه القصائد الدينية لا تخرج في مجملها عما لخص الثعالبي في كتابه « سحر البلاغة وسرّ البراعة » (١) من أقوال البلغاء في ذكر النبي حتى عصره قال : « سليل أكرم نبعة ، وقرّيع أشرف بُقعة ، جاء بأتمته من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحرور ، محمد نبي الله وصفوته ، وخيرته من بريته ، مؤكداً دعوته بالتأييد ، ومفرد شريعته بالتأييد. .. » إلى آخر ما أورد هذا الكاتب من صفات تعاورها الشعراء والبلغاء .

ولم يخل القرن الماضي من شعراء امتدحوا النبي ، فقد أنشأ محمود سامي البارودي قصيدة دينية سماها : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » جعل فيها سيرة النبي من مولده إلى انتقاله ، وسار فيها نظماً كما سار ابن هشام في كتابه عن حياة الرسول نثراً . وهي متينة التراكيب تذكرنا بشاعر الرسول حسان في معانيها ؛ والقصيدة ميمية كذلك تتحدث عن الغار والعنكبوت والحمامتين في خيال واسع ، ثم تقصّ علينا غزواته وحروبه والأعلام الذين اشتركوا فيها ؛ يختمها بالرجاء والشفاعة والخشوع والخضوع فيقول :

لم يترك الدهر لي ما أستعينُ به على التجمّل إلاّ ساعدي وضمي
هذا يحبّر مدحي في الرسول وذا يتلو على الناس ما أزيجه من كلمي

فقد وضع لسانه وساعده رهناً لمديح النبي يتلو على الناس محامده ومزاياه

(١) طبعة أحد عبيد بلمشق سنة ١٣٥٠ هـ - انظر ص ١١ .

وخصاله وشأئله ، ثم يقول :

وإنما هي أبيات رجوتُ بها نيل المني يوم تحيا بدّة الرّمم
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت أحسنَ بمنشر فيها ومُنْتَظَم

فيرجو كشف غمته ودفع بليته ، لعله يعلو بمدحيه على هام السماك ويصبح
السعد من خدمه فلا يخذل بعد اليوم ولا يضام بعد هذا القول . ومدحه بقصيدة
أخرى (جيمية) افتتحها بالنسب ، ويسط فيها الرجاء وتشفع بالدعاء بعد
الستين من عمره ، فهو يرى العروج إلى مدحيه وسيلة من وسائل الشفاء والصحة
والنجاح وبلوغ الأجداد ، فهدايته وحدها رفعت البشر وسمت بهم ، وجعلت أمته
فريدة بين الأمم تعتربه وبرسالته وبعثه في العرب :

هو النبي الذي لولا هدايته لكان أعلم من في الأرض كالهَمَج

وأنشأ أحمد شوقي في مديح النبي قصائد عدة منها « الحمزية النبوية » افتتحها
بذكر ما كان لمولده في تبسم الزمان واستنارة الكائنات ، وبيت النبوة وخلائق
الرسول وعلمه وكلامه ، فامتدح بالبشر الذي يلوح على محياه ، وذكر الخوارق
كما ذكرها الشعراء قبله في نار كسرى وزلزلة العروش والتهيجان فقال فيه :

يا مَنْ له الأخلاقُ ما تهوى العُلا مِنْها وما يتعشقُ الكُبراءُ
زانتك في الخلق العظيم شائِلُ يَغْرى بهنَّ ويولع الكرماءُ

فهو يرسم أخلاقه الكريمة العظيمة في رضاه وغضبه ، في سكوته وفي كلامه ،
في بيته وأسرته ، ثم ينتقل إلى القرآن فيصفه ويصف الرسول :

يأيّها الأُمّي حسبك رتبة في العلم أن دانت بك العلماءُ
الذكر آية ربك الكبرى التي فيها لباغى المعجزات غناء

ويتطرق شوقي بعد ذلك إلى فلسفة القدماء والمحدثين وآرائهم في الاجتماع والسياسة والفصاحة والبلاغة وفضل النبي عليها جميعاً وتفرده بينها بالسمو والكمال :

الإِشْتِرَاكِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلُوَاءِ
دَاوَيْتَ مَتَّئِدًا وِدَاوُوا طِفْرَةَ وَأَخْفُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءِ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكَلِّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَمَوَاءِ
فَلَوَانَ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مَلَّةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءِ

وشاعرنا وحده بين المادحين أدخل روح زماننا ولباساته ومذاهبه وآراءه في تصوير النبي ، فكانت قصيدته درساً في الموازنة بين المذاهب والشرائع والقصائد والآراء ، كأنه يتحدث بلسان العصر على أربعة عشر قرناً لم تضيف كلها شيئاً جديداً إلى ما أورد هذا اليتيم الأعمى ، ولم ترد عليه فيما حمل من معجزة ومن فلسفة ، وختم شوقي قصيدته بالدعاء كذلك كما ختم غيره .
ونظم في ذكرى المولد قصيدة أخرى امتدح فيها الدين والنبي ونظر إليه فيها نظرة قومية ، وأشار إلى بلاغته وجهاده فقال :

وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدَى سُبُلًا وَكَانَتْ خَيْبُهُ لِلْحَقِّ غَابَا
عَلَّمْنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ حَتَّى أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا

فهو يرى في النبي إماماً في الفصاحة ومثالا للخلق الرفيع وقائداً عظيماً وزعيماً كريماً ، قاد المسلمين إلى مراعٍ الظفر والنصر وامتلاك المجد والحاوود والأخلاق .
ويتلفت شوقي في قصيدة أخرى فيرى العالم الإسلامي مضطرباً قلقاً فيقول :

فَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ أَبْثُكَ مَا تَدْرِي مِنَ الْحَسْرَاتِ
شُعُوبِكَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سُبَاتِ

فشوقي شاعر الدين في العصر الحديث ينظر إلى المسلمين نظرة المسلم التقلق

وقد هاله اضطرابهم وحيرتهم ، فرأى أنهم يحتاجون إلى زعيم ويفتقرون إلى كتاب ، وأنهم سيضطرون إلى اتباع مذهب سياسى ؛ فأشار على قومه والأمة الإسلامية أن تعود إلى زعيمها القديم ، منذ أربعة عشر قرناً تتبع مناهجه وترسم خطاه ، وتؤمن بدينه فى ذلك الفلاح وفى اقتفائه النجاح ، وليس لداء القوضى الذى انتشر فيهم وغلب عليهم إلا هذا الدواء الذى التمس فى خلق النبىّ وفى تعاليمه السامية المحيطة .

* * *

والشعراء فى الأفطار العربية ما يزالون يرسلون المدائح فى النبىّ ، ويصورون بطولته وكرمه وجمال خلقه وعظمة أخلاقه ، وسمو رسالته ، وهم كذلك يبحثون قومهم على اتباع نهجه واقتفاء أثره ، ويتألمون لما هم عليه من فوضى واضطراب وتفكك ، يرون أنها شبيهة بحال العرب قبل الإسلام فلا يجدون لها خلاصاً إلا على يد زعيم يحمل رسالة الإنسانية والعدالة ، ويحطم العبودية فى كل صقع ، ويقوم للشرك والظلم فى كل مكان ، فيعيد للعرب مجدهم وعزهم ، ويذل أعداءهم ، ويخلصهم مما هم فيه ، فترجع إليهم انتفاضتهم القديمة ، وتذكرهم الأمم من جديد بالقوة والبأس والخلود ، وتخشى بأسهم وتجعلهم فى مصاف الشعوب الحرة المحترمة .

ذلك ما يردّده شعراء العرب اليوم ، يمدحون النبىّ لكل ذكرى ويستعيدون تاريخه وسيرته لكل مناسبة ، إذا ادّهم الخطب وكشرت النوائب ؛ ولهذا نجد فى كل ديوان شعراً فى النبىّ ، يشيد باسمه كما أشاد القدماء منذ حسان ، وهو كثير لا سبيل لإحصائه أو عرضه ، فى الشام والعراق ومصر ، فقد أنشد أنور العطار ، وعمر أبو ريشة ، وأحمد مظهر العظمة ، وعدنان مردم قصائد كثيرة نشرتها الصحف وحملتها الدواوين إلى القراء ، فيها مديح الأجداد ووصف المحامد والدعاء والرجاء بكشف الكرب ودفع اللثام عن الشام ، ورسم المعارك والغزوات ، وتصوير اليتيم وجهاده فى جزيرة العرب لمحو الشرك ونشر التوحيد ، حتى انتصر

الوحي الجديد ، وفازت العقلية الجديدة ، وقامت للعرب دولة جديدة في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي مصر أنشد كثير من الشعراء في مدح النبي ، وقد نظم الشاعر المصري محمد عبد الغنى حسن ديواناً كاملاً في مديحه سماه « من وحي النبوة » (١) لا نعرف له مثيلاً في الأدب العربي ، فقد جعله تمجيداً للرسول في صفحات شعرية تبين عن صفاته وسيرته وأجل ما في حياته ومعجزاته ، كأنه يعدها نواة للمحنة الكبيرة في الإسلام ! ولعل غيره فعل مثله ولم يبلغنا ما نظمه في النبي .

ولن نوفي حق هؤلاء الشعراء في عرض شعرهم ونقده وبيان ما له من ميزات جديدة في مديح النبي ، لأن ذلك يطول ، وإنما نكتفي بالإلماع إليه ، والإشارة إلى كثرته ووفرته ؛ تحدثنا عنه لنبرهن أن هذا اللون من الأدب لم ينقطع في الشعر العربي منذ حسان (٢) ، وأن الشعراء اتجهوا إلى الدين وإلى النبي كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث ، فعادوا إلى الماضي يفخرون ويعتزون ويستحثون المهتم للاقتباس منه ، والسير على هديه ، لعل الأجداد تعود إلى أمتنا من جديد ، وتلفنا الرفعة من كل جانب ، وتحيط بنا المفاخر في المستقبل .

(١) مكتبة الآداب - القاهرة .

(٢) الذين يريدون أن يعرفوا ما كان للمديح النبوي من ثروة ضخمة كبيرة يحسن أن يعودوا

إلى كتاب « المجموعة النهائية في المدائح النبوية » لإسماعيل النبهاني .

الفصل الخامس

المديح الديني السياسي

مديح آل البيت

١

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوته ، فقد امتدحوا آل بيته لمقامه ورفعته بين البيوت . وقد دفعهم الألم والحزن في كثير من الأحيان إلى الالتفاف حول البيت ، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة - إذا صح التعبير - ، واتخذوا من المديح الديني لآل البيت وسيلة سياسية للمطالبة بالخلافة والحكم ، والدعوة إلى الثأر والانتقام والتنديد بالظلم كما يصورونه حين يرون أنه انصب على هذه الأسرة وهذا البيت ؛ حتى لقد بالغ بعضهم في هذا المديح فاستغله استغلالاً واسعاً وقلبه إلى رثاء وتشيع للبيت وآله ، وأصبح هذا التعلق سبيلاً إلى التفرق، وغداً هذا الحب سبيلاً إلى البغض لأن السياسة دخلته، وما دخلت السياسة شيئاً إلا غيرت من معاملة وأفسدت من أهدافه . لذلك أنشد الشعراء في المفاضلة بين الصحابة والأصفياء ، وقالوا في حق الخلافة ؛ وألحوا على صور الفواجع التي ألمت بأهل البيت كقتل الحسين وإحياء ذكراه في ماتم تستعاد فيها ذكرى المآسي ! فجرى الشعر في الدواوين كما جرت الدماء في تلك المنازعات من قبل ، وظل كذلك حتى اليوم تهتز له الأسماع في كثير من الأصقاع وينشد في المحافل ، حتى لكأننا في الأيام الأولى للإسلام ، نشهد الفاجعة من جديد ، ونحياها في أسمى وتظلم وبغض وحقد ، يحمل الأبناء فكرة الانتقام من أحفاد لا يملكون إلا الأسف لما وقع بين أجدادهم في القديم .

والشعراء الذين دخلوا في هذا اللون من المديح أصاب كثيراً منهم عنت وإكراه ومصائب ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله وحسبوا أنه نضال وجهاد يقاتلون بألسنتهم ويلقون ما يلقي المجاهد في سبيل عقيدته ومبدئه .
وقد مدح الكميت ، وسار شعره في حب الرسول وأهله ، وكأنه لا يخاف أن يثير بني أمية حين ينتقدهم ويتهمهم بأنهم نهبوا الخلافة واستلبوها ، فهي من حق الهاشميين ، وسُميت قصائده بالهاشميات ، مدح فيها أخلاق بني هاشم ، ووصف منهم كرم الثمائل وجميل الحصال ، وقال إنهم الحماة الكفاة والولاة الأساة ، وهم الأسد في الوغى ، وهم على ذلك ساسة العرب لا يشبهون في ذلك ساسة الأمويين من الخلفاء :

لَا كَعْبِدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ سَلِيَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ

وتناول الأمويين بالهجاء ورأى أنهم لا يصلحون للخلافة ولا الحكم ، فهم يعاملون الرعية معاملة السائمة يستغلونها ويستخذونها في أغراضهم . والكميت ذو نفس طويل في هاشمياته عاطفي في مدحه لأهل البيت ، يجد في قرابتهم من الرسول تقرباً من الخير والنعمى :

بني هاشم رهط النبي فإني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

والرسول خير حي وميت من بني آدم غيبته المقابر ، وخير جنين وخير مسترضع :

خير مُسْتَرَضِعٍ وخير فطيم وجنين أقرّ في الأرحام
وغلاماً وناشئاً ثم كهلاً خير كهل وناشئ وغلام
لو فدى الحي ميتاً قلت نفسى وبنيّ الفدا لتلك العظام

وهو يجد فيه مجد العرب وسناهم ، وأنه أمين الله في الناس كلهم ، ثم يتقل

بعد مدحه إلى بكاء القتلى من أهل البيت والتفجع عليهم والتوجع لمصائبهم ،
وأخصهم الحسين ، وينصرف إلى تصوير حكم الأمويين وسوته وفساده ، ينعى
عليهم الضغائن والأحقاد وينتهى إلى القول :

بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بَايَةِ سَنَةٍ تَرَى حَبَّهٖمَ عَارًا عَلَيَّ وَتَحَسَبُ
فَمَا لِي إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شِيعَةَ وَمَا لِي إِلَّا مَشْعَبَ الْحَقِّ مَشْعَبُ

فهو لا يرى العار في حب آل البيت وإنما يراه في البغض ، فيتشفع ويعلم
ذلك ويراه الحق المبين والطريق الواضحة .

والفرزدق على مديحه لخلفاء الأمويين ، نقلت إلينا كتب الأدب أنه مدح
آل البيت كذلك وتشيع ، فنسبت إليه قصيدة في الإمام زين العابدين ، هذا
مطلعها :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبِطْحَاءَ وَطَائِهِ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحَلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ كُلَّهُمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قَالَ قَائِلُهَا إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهَى الْكِرْمُ
يَنْمَى إِلَى ذُرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجْمُ

وبعد أن يصف موطن الإمام ومراح صباه من أماكن مقدسة ، يصف
حياءه ومهابته وجمال طلعه وإشراق غرته وعظيم كرمه وواسع إحسانه إلى الناس ،
ويتنقل إلى آل البيت لينشد فيهم :

مِنْ مَعْشَرِ حَبِّهِمْ دِينٌ وَبِغْضِهِمْ كَفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمَعْتَصِمٌ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقِيِّ كَانُوا أَثْمَتَهُمْ أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَبْلَ هُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادُ بَعْدَ غَايَتِهِمْ وَلَا يَدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرَمُوا

هم الغيوث إذا ما أزمة أزمّت والأسدُ أسدُ الشرى والبأسُ محتدمُ
 فجعل حبهم من الإيمان وبغضهم من الكفر ، وفي القرب منهم نجاة والبعدهم
 عنهم هلاك ، فهم أئمة أهل التقي وخير أهل الأرض قاطبة ، لا يلحق بهم جواد
 ولا يدانهم قوم ، فهم السحاب في النجدة والكرم ، وهم الأسود في البأس والشدة ،
 وليس بعد هذا مطمع للمادح في آل البيت .

وعاش دعبل في عهد الرشيد فدح آل البيت ، وعجب كذلك لقتل
 الأحرار من بني هاشم ، وعاب على العباسيين أن يعاملوا العرب كما عاملوا الروم
 والخزر ، فقال :

قَتَلُ وَأَسْرُ وَتَحْرِيقُ وَمَنْهَبَةٌ فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
 أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عُذر

فإن كان من عذر لبني أمية فليس ثمة عذر لبني العباس . ورسم دعبل
 مقتل الحسين كما وصف غيره ، وعدد فواجع أهل البيت ، وصور مدارسهم
 قد خلت من التلاوة ، ومنازل وحيمهم أصبحت مقفرة العرصات :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ ومنزل وحى مقفر العرصات

وهو يعدد هذه المنازل ويذكر هذه القبور فيعرض لمرايع العزِّ ومواطن الألم
 والفتيجة ، ويبكى ويستبكي ، ثم يعود إلى أهل البيت ليظهر حبه وغرامه بهم :

مَلَأَمَكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ أَحْبَابِي مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
 بِنَفْسِي أَنْتُمْ مِنْ كَهَوْلٍ وَقَتِيَّةٍ لِفَكَ عِنَاةٍ أَوْ لِحَمَلِ دِيَاتِ

ويمدحهم كما مدح الجاهليون رجالاتهم فيرى فيهم فك العناة وحمل
 الديات ، وأظهر حبهم في عهد يعاقب فيه الحب ويكافأ الشاني .

٢

ولما كان القرن الرابع الهجري واستولى الحمدانيون على الجزيرة وحلب ، جعلوا من هذه الربوع منابر لمدح أهل البيت ومناثر للمطالبة بالثأر ، فهم شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمدح الشيعة والتفجع لماضيتهم ولما حل بهم ، فيهم كشاجم والسرى الرفاء ، والأواء الدمشقي ، وأبو فراس الحمداني ، والصنوبري ، والخالديان ، ودواوينهم تغص بهذا المدح وتمتلئ بهجاء العباسيين ، تردّ على شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنشئ في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند الله ، فيقول شاعرهم أبو فراس الحمداني (١) :

شافعي أحمد النبي ومولا عى عليّ والبنت والسبطان
وعلىّ وباقر العلم الصا دق ثم الأمين ذو التبيان
وعلىّ محمد بن عليّ وعليّ والعسكري الداني
والإمام المهديّ في يوم لا يند فع إلا غفران ذى الغفران

وهذا الشعر شبيه بالنظم التاريخي ، لما حشر فيه صاحبه من أسماء وأعلام كأنه أرادها للشيعة صلاة روحية ، يردّ دون ما قال ، ويترحمون على الأئمة ، ويتفجعون لما أصاب القتلى . وهو في ديوانه يوازن بين آل البيت وبين العباسيين ، ويورد فضائل الأولين وما يأخذه على الآخرين :

لا يَعْضِبُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ إِنَّ غَضِبُوا ولا يُضْعِفُونَ حُكْمَ اللَّهِ إِنْ حَكَمُوا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً وفي بيوتكم الأوتار والنغم

(١) انظر في معرفة الأئمة وبيان أسماهم وأنسائهم ، ديوان أبي فراس طبعة بيروت ١٩٤٤

فيصف تقوى آل البيت وهو العباسيين ، ويأخذ عليهم أنهم لم يكفوا الشتم عن بنات رسول الله ، ولم يعترفوا بالبيعة ولم ينحرفوا عن الغدر ، فقد كان عليّ أولى الخلفاء بها بعد النبيّ . وهذا كله شعر سياسي في لغة عصرنا اليوم ، لكنه قبليّ عصبيّ لعصره ، يشبه عصبية الجاهلية وحميتها في القربى والدم وشائج الرحم ، وهو كذلك يقول :

أهوى الذي يهوى النبي وآله أبداً وأشناً كل من يشناه

والصنوبريّ من أطول الشعراء الحمدانيين نفساً في مدح أهل البيت ، فهو يخصهم بقصائد طويلة جداً ، يزور فيها قبور يثرب يحيي جدث الرسول ووصيه ، ويمدحه مدحاً عظيماً :

ومن مضى خاتم الرس ل والمسراج المنيرا
ومن به بشر الركب من قريش بحيرا

ثم ينتقل إلى حمزة والعباس ، ويذكر دور « الغرى » وقبور العراق ، ويفيض في مقتل الحسين ، ويصف كربلاء والقواجع والمآسى ؛ وإن نسهب في عرض شعره فهو شبيه بالحمدانيين في هذا . وإنما تنتقل إلى الشريف الرضى ، نرى عنده مدح آل البيت ، في شعر فيه فخر واعتزاز وعصبية ، وذكر للقبور والأماكن كالطف والغرى وطوس وسامرا وبغداد وغيرها ، يقول :

قُبُورٌ تَنْطَفُ الْعِبْرَاتُ فِيهَا كَمَا نَطَفَ الصَّبِيرُ عَلَى الرَّوَّابِي (١)
فَلَوْ بَخَلَ السَّحَابُ عَلَى ثَرَاهَا لَدَابَّتْ فَوْقَهَا قَطْعُ السَّرَابِ

وفيها امتداح للنبيّ وفاطمة والسبطين والوصيّ كما فعل الصنوبريّ وأبو فراس سواء بسواء . وهو يتوجع للقواجع ويذم بنى أمية ، ويذكر الثأر والانتقام ويندد

(١) الصبير : السحاب المتكاثف .

بالقائلين فقد خفروا ذمة النبيّ وأسأوا إلى آل بيته :

بَاعَتْ بَصَائِرَ دِينِهَا بِضَلَالِهَا وَشَرَّتْ مَعَاظِبَ غَيْهَا بِرِشَادِهَا
جَعَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ خَصْمَائِهَا فَلَبِئْسَ مَا ذَخَرَتْ لِيَوْمِ مَعَادِهَا

وهكذا حوّل الشعراء مديح آل البيت إلى قصائد باكية حزينة تشبه الرثاء والتفجع وتحث على الانتقام والثأر ، فأعادوا سيرة الجاهلية في العصبية والقبلية ، وامتدحوا فضائل القتلى .

ومهار الديلمي لا يقل عن زملائه في هذا الميدان، في إثارة العصبية ، حين مديح آل البيت ، فقد غلب على شعره الرثاء والبكاء كذلك ، وتوجع ، وجعل القضية دينية صرفة :

هذى قضايا رسول الله مهملةً غدرًا وشملُّ رسول الله مُنْصَدِرِ

وقد تجمع من هذه القصائد في آل البيت كتب كثيرة ومجاميع عديدة ، عمل القدماء على جمعها وتبويبها كما فعل اليافعي ، حين ألف كتابه الكبير « نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر » . وعمل المحدثون على دراسة هذا الأدب وبسط تاريخه ، وعرض ما وقع للشيعة ، فسالت في كثير من أصقاع العرب كلبنان والعراق كتب متعددة تثير الخطب وتكمل الطريق . ومن المعاصرين شعراء يسرون في مديح آل البيت سيرة سياسية يمدحون من يتولى منهم الحكم أو يمسك بزمام الملك ، ويخلصون لهم إخلاصاً كبيراً يشبه المطالبة بحكم هذه السلالة وعودتها إلى دفة الخلافة والإمارة . وقد عقد الكتاب في هذا الأدب فصولاً كثيرة تنظر إليه من ناحية السياسة ، وتنظر إليه هنا من ناحية الدين والسياسة جميعاً ، لا نفرّق بينهما ، يعتمد أحدهما على الآخر في حججه ودلائله ، حتى ما يمكن أن يفصل بينهما .

الفصل السادس

المديح السياسى

٢

بسطنا فى الأبواب السابقة ما كان من مدح للملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والوجهاء ، وعرضنا لمديح العلماء والكتاب ، وألمنا بطرف من مديح النبي ، ونظرنا من خلال الشعر إلى النواحي الأدبية فى المديح من وصف للشجاعة والكرم وأصالة النسب وقوة العارضة وشدة الذكاء ، وبسطة العلم وإلجاء ، ووقفنا عند الحدود الفنية فى ذلك ، لم نعرض لما وراءها من قصد سياسى إلا حين كتبنا فى مديح آل البيت ، فرأينا فيه أهدافاً عصبية وقبلية ودولية — كما نقول اليوم — إلى جانب العاطفة الدينية التى اعتمد عليها هذا اللون من المديح كأساس للمطالبة وعنوان للحجة .

ونحن حين ننظر فى الأبواب الأخرى من الناحية السياسية الصرفة نجد فيها كما وجدنا فى مديح آل البيت دوافع خفية وظاهرة إلى عمل سياسى وغرض دولى . فالنابغة حين امتدح مليكة النعمان بن المنذر انتصر لدولة دون دولة ومملكة دون مملكة ؛ لأن الغساسنة كانوا أعداء المناذرة ، ومديح فريق خصم يعد فى عرف السياسيين اليوم خصومة للفريق الآخر ، وهو انحياز لمعسكر دون معسكر ، كما تقول الصحافة المعاصرة . وكذلك مديح قبيلة دون قبيلة حين تشتد الخصومة بينهما وتستعر الحروب ، وتقدم الأيام شواهد على هذه الخزانات والأحقاد والضغائن ، وتأييد القبيلة لتشجيع للثورة على أخصامهم وبعث للحرب والانتقام . فإذا عرفنا أن أيام العرب تجاوز الألف عدداً -- كما قال بعض

المؤرخين - أدركنا أىّ شعر في المديح السياسي سفح الشعراء وأسألوا في قوافي الدواوين ، يردّده أهل القبيلة في السلم تهيئة للحرب وفتحاً بالنصر وبعثاً للهمم الخاملة ، فالزعيم في القبيلة كالمملك في الدولة لأنه سيد قومه وحاكمهم ، وإليه المعاد في أمور السياسة والحكم ، وهو وحده صاحب الكلمة النافذة . ومصالحته هي مصلحة القبيلة ، ولا شأن للفرد إذا ذكرت الأسرة والعشيرة والدولة . وحدود القبيلة المؤقتة هي حدود الوطن ، ترسمها رماحهم وتكسبها نصالهم وتبنيها مواضعهم ، والدفاع عنها دفاع عن الوطن .

ولما كان الإسلام ، وقف حسان يمدح النبيّ في دينه الجديد وسياسته الجديدة لإدارة الدولة ، ووقف خصومه يقاتلون سياسياً في شعرهم ويردون على شعراء حزب النبيّ - إذا صحّت التسمية - لذلك كان مديحه من جانب سياسي منصباً على حقه في زعامة الأمة وإنقاذها من الفوضى والكفر ، والسير بها إلى التنظيم والإيمان ، فهو يشيد بالفتوح الإسلامية ويمتدح الدولة الجديدة القائمة لانتصاراتها في فتح مكة وفي بدر ، أو يرد على خصومه من الشعراء السياسيين الذين انتصروا لحزبهم كذلك . وقد وقعت بعد انتقال الرسول قضية المبايعه فدعا الشعراء لمرشحيهم في الحكم كما نقول اليوم ، وامتدح كلّ منهم صاحبه ، وراح يدلى بحججه في حقه بالخلافة .

وقد حبس الخطيئة فأرسل يستعطف عمر بن الخطاب قائلاً :

أنتَ الإمام الذي مِن بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرُ
لَمْ يُوَثِّرْكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لَأَنْفُسَهُمْ كَانَتْ بِكَ الْأَثَرُ

فهو يرى أن البشر ألقّت إليه مقاليد النهي بعد أبي بكر ، وآثروه بها ، لأنه أنفع المسلمين وأجدرهم وأحقهم ، فخاض بشعر بسيط في خضمّ النزاع السياسي والحزبية المستعرة آنذاك ، وكأنه فضّ الخلاف وقضى فيه بقوله هذا . وظلت هذه الخصومة في الحجاز حتى انتقلت إلى العراق والشام بعد مقتل عثمان ، فقال

كعب بن جعيل يصف الحال :

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّرَ مُلْكَ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهُ كَارُهُونَا
وَكُلٌّ لِصَاحِبِهِ مُبْغِضٌ يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ دِينَا
وَقَالُوا : عَلِيُّ إِمَامٌ لَنَا فَقُلْنَا : رَضِينَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينَا !

وظهر بعد هذا شعراء من الخوارج كرهوا من عليّ قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، فدخلوا من باب السياسة الواسع وألحوا على هذا المعنى ، ولكنهم لم يمدحوا فئة بعينها ، وإنما جاهدوا في إبداء آرائهم السياسية ، وأقلقوا أمن الدولة الأموية كما أقلقها الشيعة سواء بسواء . ولكن الشيعة كانت تمدح جانباً وتذم جانباً ، وتميل دائماً إلى بيان موضوع الوراثة وحقّ عليّ في الخلافة ، كما قال الكميّ :

يقولون : لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحبُ

ومدح كثير عزّة الأئمة من قريش وصارحنا بمذهبه السياسي فقال :

أَلَا إِنَّ الْأئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ خِفَاءٌ

وهكذا بسط أسماء المرشحين للولاية والخلافة ، وطبعي أن نجد في الأحزاب الأخرى شعراء يمدحون مرشحهم كذلك ، منهم زبيرى الطوى كابن قيس الرقيات حين يمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إِنَّمَا مَضَعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدِّاءِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلَمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

فيدعو إلى ملكه وخلافته ، ويرشحه للمنصب السامي الرفيع ، لأنه قوة من

الله ، ولأنه شهاب منير فيه جبروت ، ليس عنده كبرياء ، وهذا بيان حزبي موجز في حكم قليل ، ينصر مصعباً ويمهد له الحكم والرئاسة .

ومن الأحزاب كذلك سفيارين يذهبون إلى حكم معاوية وأسرته بعد أن قُتل عثمان ، وأصبح أهل بيته أولياء دمه ، وعلى رأسهم معاوية ، فهم يقومون بأعباء الحكم ، ينصرهم ماض في قريش عريق ، وهم من أسرة النبي فهم وارثوه ، لذلك قام الشعراء بمدحهم ودعمهم والدعوة لهم ، كأن يقول أعشى ربيعة في ذم الزبيريين ومدح الأمويين :

إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها

ويقول النابغة الشيباني في عبد الملك حين هم بخلع أخيه وتولية العهد لابنه الوليد :

أما قُرَيْشٌ فانت وارثها تكف من غربهم إذا طمحو
لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح

ونلاحظ البساطة في عرض الأسباب والحجج والوثائق والأدلة لدعم الخلافة والوراثة والولاية ، فهي لا تعدو أن تكون تقريراً لا تعليلاً في غالب الشعر ، كما يقول أرباب السياسة ، ولكنهم شعراء لم يحدقوا هذا الفن ، فهم قريبو العهد به ، يظنون أن قولهم حجة ، وأن شعرهم بيان سياسي فيدلون به وهم على مثل الثقة بأن السامع معهم في التصديق والتحقيق . والشعراء الذين مدحوا سياسياً في عهد بني أمية كثر ، منهم عدى بن الرقاع وهو من دمشق ، وأبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير الأسدي ، وغيرهم ، تجد في شعرهم حلم معاوية في الحكم ، وحزم عبد الملك ، وقسوة هشام وعبث يزيد بن عبد الملك . يعرضون لطريقة حكمهم ، ويبسطون سلوك الخلفاء خلال ذلك كله ؛ فيقول الفرزدق في عمر ابن عبد العزيز :

لم يُلْهِه عُمَرُ عَيْنَ يُفَجِّرْهَا وَلَا النَخِيلَ وَلَا رِكْضَ الْبَرَاذِينِ .
ويصفه بأنه يختلف عن غيره من الخلفاء في جدّه وتقواه ، وحرصه على
أموال الرعية ، وبسطه العدل والمسطاس بين المسلمين . وهذه حجة قوية يدلي
بها الفرزدق في بيان سيرة سياسية لخليفة أمويّ .

وقد دخل هؤلاء الشعراء كذلك فيما كان بين قيس وتغلب منذ القديم من
عصبية وتنافس في توجيه السياسة . وكان الأخطل أشدهم براءة في إثارة النعرة
وإيقاظ الفتنة وبعث الدفين من العواطف ، فدارت بينه وبين جرير قصائد
كثيرة حول هذا الموضوع ، فكان جرير لسان قيس ، ووقف الأخطل مع
تغلب بنى قومه . وقام الفرزدق بنصيبه في هذه المعركة السياسية ، فعاشت
الإقليمية - كما نقول اليوم - واستيقظت العصبية الجاهلية ، وعاد الناس
القهقري يسمعون شعراً كان يسمعه أجدادهم من قبل ، وأصبح الشعر في خدمة
الأمير والقائد والوالى على مختلف الأقاليم الإسلامية . ذلك لأنهم كانوا يمثلون
الخليفة في حكمه ، وينطقون باسمه في سياسته . وقد رأينا مديحاً لهؤلاء في أبواب
سابقة ، كالحجاج وابن الأشعث ويزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم ، حتى إن
بعض الشعراء لزم والياً أو قائداً أو أميراً ، كما يلزم خليفة أو ملكاً ، فازداد
بذلك المديح السياسى وتشعب ، وكثرت أغراضه وتنوعت أساليبه ، وقبل في
هؤلاء من المديح الإدارى والسياسى ما لو قيل في الحكام المعاصرين لأثابوا عليه
الصحابة والأنصار ، فقد قال جرير في الحجاج :

من سَدَّ مُطَّلِعِ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مِنْ يَصُولِ كِصُولَةِ الْحِجَّاجِ
أَمْ مِنْ يَغَارِ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةَ	إِذْ لَا يَثْقِنُ بَغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضَى الْبَصِيرَةِ وَاضِحِ الْمُنْهَاجِ
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكِمِ سَبِيلِ الْهَدَى	وَاللِّصِّ نَكَلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ

وهكذا صورّ الحجاج خصماً للنفاق السياسي ، صائلاً في حكمه ، قد أزم النساء لعهدده خطة الحفاظ على الأسرة والشرف في البيت ، فكان واضحاً في منهجه يمنع الرشوة ، ويحول دون السرقة والصوصية . فمن من الحكام لا يطمح اليوم إلى مثل هذه الرتبة وإلى مثل هذا المديح ؟ !

٢

وظل الشعراء العباسيون على هذا الغرار يمدحون الحاكم لسياسته ، فكان مسلم ابن الوليد يثنى على القواد والأمراء لحنكهم في تسيير الأمور بحنكة ودهاء ، وعملهم في بسط الأمن ، وجباية المال ؛ فقال في منصور بن يزيد وآله :

كانوا الملوك بنى الملوك وراثَةً والملك فيهم لا يزال يدورُ
أعظاهم ذلّ المقادة قيصرُ وجبى إليهم خرجه سابورُ

وأبو العتاهية مثله في ذلك يرى في ممدوحه جدارة بالحكم ، ويراه وحده أهلاً للخلافة فيقول في المهديّ :

قلم تك تصلح إلّا له ولم ينك يصلحُ إلّا لها
ولو رامها أحدٌ غيره لتزلزلت الأرض زلزالها

والشعراء بعده كانوا يرون في الأمراء والخلفاء أحق الناس بالحكم والإمارة لما يبذلون من عدل وما ينفقون من شجاعة وذكاء في تسيير دفة الأعمال ، كما فعل أبو تمام والبحتري وغيرهما . والمتنبى امتدح حاكم حلب ثم رحل عنه إلى خصمه حاكم مصر فوجد لكل منهما دليلاً على جدارته في الحكم وموضعه من السلطان . وقد قال البحتري في إسحق بن إبراهيم :

الله أيديكم وأعلى ذكركم بالنصر يقرأ في السماء ويكتبُ

ولأنتم عدد الخلافة إن غدا أو راح منها مجلس أو موكب
والسابقون إلى أوائل دعوة يرضى لها رب السماء ويغضب

فأرى أن الله يؤيد هذه السلالة ويُعلي ذكرها ، ويجعلها أهلاً للخلافة ،
وبذلك ينصر الدعوة ويرضى لأصحابها ويغضب لأعدائها . وابن هاني الأندلسي
وجد لبني هاشم حقاً في الحكم على مئات السنين :

بني هاشم قد أنجز الله وعده وأطلع فيكم شمسها وهي ذلك^(١)
ونادت بثارات الحسين كتائب تمطى سراعاً في قناها المارك

فأعاد سيرة الحسين والثأر له ، ودعا لهذه الفئة السياسية أن تظل في الخلافة
وأن يظل حكمها مبسوطاً على الناس ، كذلك ثابر الشعراء في عصبيتهم القباية
ينزعون إليها كما لمسوا السياسة أو أرسلوا شعرهم في الملوك والحكام سواء في الشام
أو في مصر والعراق ، وكان هذا الشعر يثور ويتنصر حين تكثر الدويلات ويسود
الانتقام ويغلب التنافر والتنافس في الحكم ، طوراً بين حلب ودمشق وبغداد
وفارس ، وطوراً بين مصر والشام أو بين الشيعة والسنة على اختلاف العصور .

* * *

فلما كان العصر الحديث وقامت الآستانة ، نشأ في المديح السياسي ميل
إلى العروبة طوراً وإلى الإسلام أطواراً . فسار شوق في ركاب الآستانة وامتدح
الخلفاء العثمانيين لعلهم يمدون رواقهم على الإسلام ويرسلون رايتهم في نصره
والدعوة له ، وقد ضربنا الأمثال لهذا الشعر يمتدح به شوق عبد الحميد حيناً
والخديو حيناً آخر ، ويتنصر لمصطفى كمال ثم يمتدح رجالات مصر ممن كانوا
يسعون في استقلالها وتفريدها بالحكم — كما رأينا في فصل سابق .

ولما كانت الحرب العالمية الأولى ، وانفصلت الدول العربية عن الآستانة ،

(١) ذلك : مصفر ، غائب زال عن كبد السماء .

قام الشعراء بمدح الحكام والملوك ونصر سياستهم في بغداد حيناً ، وفي القاهرة حيناً آخر ، وفي دمشق أحياناً . وقيل في فيصل الأول وحكمه ما قيل من شعر يعيد إلى الذكري عصبية العرب وخلافة الإسلام . وقيل في ملوك مصر أكثر من هذا ، حتى طمع آخرهم في خلافة المسلمين وجمعهم إلى ركابه ، ينظرون إلى عرشه في القاهرة ، وقال الشعراء بمدحونه لهذا ويشهدون له بنسب قرشي هبط إليه على ألسنة الوحى ! ولكننا لن نبسط القول فيه فقد ذهب مع التاريخ وغابت الأشباح . وقد قامت ثورات في العالم العربي وحكم رجال خلالها فتلقاهم مدح الشعراء لعظيم سياستهم وجميل حكمهم والإشادة بديمقراطيتهم ، وتوزيعهم العدالة بين الشعب ، وحرهم ضد الأدواء الثلاثة من جهل وفقير ومرض . وانقلب المدح السياسى إلى قواعد غريبة ، فيها عكوف على حقوق الفرد ، وبيان لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، ودستورية الحكومة .

ولم يقف المدح السياسى خلال هذه الحقبة الماضية على الملوك والحكام والخلفاء ، وإنما انتصر للقادة السياسيين والزعماء المخلصين ؛ فامتدح سعد زغلول في مصر ولإبراهيم هنانو في الشام ، وامتدح غيرهما من الزعماء والأنصار ، وما نزال نسمع في المديح ونقرأ في الصحف مديحاً للسانة فيه إشادة بمزاياهم لتعلقهم بأهداب الوطن والدفاع عن حماه والذود عن إحياضه ضد كل مستعمر غاصب ، حتى قامت في السنين الأخيرة مدائح لأحزاب معينة تقوم ضد المشروعات أو الأحلاف ، وأصبحنا نعيش كما يعيش الغرب على شعر سياسى في المديح ، يهين للانتخابات ، ويمهد للزعامات ، وروطى الأكناف لتسلم الحكم . والأمثلة على هذا متوافرة تقوم بيننا صباح مساء ، نقرأها ونمرّ بها عابرين ، وهى أجدر أن تجمع وأن تبوّب لأنها تعيد ذكرى ماضينا ، وذكري عصبياتنا القديمة بين بكر وتغلب ، ويمانية ومضرية وسفيانية ، فهى تعيش بالألفاظ القديمة وتنظم بالأفكار الجديدة ، وتكتب بأسلوب العصر السياسى ، فتسير في مواكب القرن العشرين ، وتقلد الغرب في الدعاوة للأحزاب وأصحابها وزعمائها .

الفصل السابع مديح الأوطان والبلدن

١ - الأوطان :

أحب العربي الأرض التي عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقتها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً وحرقة ، وامتدح فيها الخير والبركة والتعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقاً ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب ! وفي الشعر العربي كثير من هذا المديح بدأ في الجاهلية ولم ينته إلى اليوم ، وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، نريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سلمى أن يصوب سحابها
بلادها حلّ الشباب تماثمي وأول أرض مسّ جلدي تراها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التي مس تراها جلده أول ما مسّ ؛ فهي وطنه وهي موضع حبه وتقديسه . وهو في ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطقي ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومي يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيهَةَ وَالصَّبَا
وَلَبَسْتُ ثَوْبَ الْعَيْشِ وَهُوَ جَدِيدٌ

فإذا تمثل في الضمير رأيتَه عليه أفنان الشباب تמיד

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر في الضمير ، فيرى الشباب
وما إلى الشباب من عيش نضير وحياة شابة . ويقول كذلك في أسباب حبّ الوطن :

وَحَبَّ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَأْرَبُ قَصَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عَهود الصَّبِيِّ فِيهَا فَحَنُّوا لِلذِّكْرِ

فالوطن مرتع الشباب وموطن اللذائذ الأولى ، وعمل الحبّ الأول بألفه الفتي
أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه
من شجر وعصاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة ، فالشاعر يقول :

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ

فالعرار هذا النبات الطيب يملأ أنف الشاعر ورثتيه وهو في نظره أضخم
من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألّف الأحبة وموطن الأصدقاء
وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر
والماء والزهر والنور والظل والشعاع ، وإنما يكون لما ينعكس منها في النفس ،
وينسكب في الروح ، ويجرى مجارى الدم ، فتنجسم كما يريد الخيال ، وتسمو
كما إلى الحب ، وهذا هو الوطن ، بقربه النعيم ، وفي بعده الجحيم ، كما يقول
الشاعر :

إِذَا دَنَتِ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيمًا إِذَا دَنَتِ الْخِيَامُ
فَلَمَحَ الْعَيْنُ دُونَ الْحَيِّ شَهْرٌ وَرَجَعُ الطَّرْفُ دُونَ السَّيْرِ عَامٌ

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفي الكبد تصدّع ، ويقبلون إليه وفي
النفس شفاء .

وقد تبدلت نظرة العربي إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال ، ففي القرن الثالث . قال أبو تمام يشرح حبه للوطن العربي فيقول :

بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلغني أقصى خراسان

ونحن اليوم ننظر بعيني أبي تمام إلى هذا الوطن العربي الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلي في الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها ، ويشتد في النخوة والاستماتة في سبيلها ، فكم سألت دماء لحماية الحمى والذباد عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس في القدماء ، وشوق في المحدثين . فقد تغرب كل منهما مضطراً ، وأنشد كل منهما في حب الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوقى قضى مدة النفي في الأندلس ، فأرسل يصف وطنه في قصيدة جميلة :

وطنى لو شغلْتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسى
وهما بالفواد في سلسبيل ظمأً للسمواد من (عين شمس)
شهد الله لم يرغب عن جفوفى شخصه ساعة ولم يخل حسنى

فاشغل بوطنه أى شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم ، وقد هفا إلى منزله بعين شمس فلم يرغب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال في الوصول إليه . ولا يقل عنه محمود البارودى في مدح مصر وهو بمنفاه بجزيرة (سيلان) حين يتشمم الهواء فيرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشميم الخلد قد حملت رياً الأزهير من ميث وأجرع^(١)

(١) الميث : جمع ميثاء وهى الأرض اللينة ، والأجرع : الأرض السهلة .

يا هل أراني بذاك الحيّ مجتمعاً بأهل ودّي من قومي وأشياعي
 فنسيمها كنسيم الجنة يحمل ربا الأزهيز من أرض وطنه الطرية اللينة ،
 ويتساءل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره ومحبيه من أهله وبنى قومه .
 والشعر الوطني كثير في أدبنا العربيّ يعيننا حصره وعرضه في هذه الصفحات
 القليلة ، فقد مرت بالوطن العربيّ هزات عنيفة على مر الأجيال ، نخرجوا من
 جنان النعيم ، فغادروا الأندلس في القديم وذكروا في كل مناسبة أو لكل
 حادثة أرضهم الحبيبة ، والحدائق الغناء التي كانت تلف منازلهم والقصور السماء
 التي كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذي كان يغذى صدورهم ، فبكوا بكاء
 لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر ما لا يحدّ ، والناس يذكرون قصيدة الرندي
 في مدح الأندلس وراثتها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتار والمغول ، وهجروا ديارهم لهجمات هؤلاء
 البرابرة ، وبكوا في قصائد عامرة بعدهم وحبهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل
 فيه المدامع وتختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر الثناء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين
 واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغربوا ، ومدحوا كذلك ما خلفوا .
 ولا تسل عن قصائدهم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية
 والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم في الوطن وحب الديار بما يملأ
 الصفحات ثناء عاطراً على الغوطتين ومشارف بردى وقاسيون ، وشطآن
 دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثماني فهاجروا إلى ديار العالم الجديد ،
 ولكن قلبهم ظل عالماً بصخور لبنان وبنابيع الشام وطرق يبرود وحمص فأرسل شعراء
 المهجر في مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصّة وحنين وإكبار واحترام .
 وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير

سكانها ما يتضائل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا في مديحها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول الفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطني الذي يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد في نظمه وخياله وتعبيره . قد أخذ عن الشعر الغربي شعور أهل الغرب بحب الوطن . حتى لكأنه يقف له أو يقلده أ يترجمه .

* * *

٢ - البلدان :

تعلق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخم . تسيل فيه عواطف الحب والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والربى والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها ، فالوا إلى مكة والمدينة . وقالوا فيهما شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر الدينى لما يظهر فيه من حب للكعبة وتقديس لروضة الرسول ، وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور . وقالوا في بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامى خلال قرون عدة ، فقال شاعرهم ابن زريق :

هيات بغداد الدنيا بأجمعها عندى وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مفلس يصفها في غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة حوت كل ما لذ للأنفس
ولكنها منيسة الموسرين كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنامُّ بها عين الغريب ولا ترى غريباً بأرض الشام يطمع في الغمض

ولن نستغفد هنا أجمل ما قيل فيها . فكاه جميل تجده في تاريخها وفي الكتب

التي تشيد بمحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير في كل بلدة سكنها شعراؤنا ، وتجد بعضه في معجم البلدان لياقوت ، أو في كتب فضائل البلدان ، فقد أُلّف فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطاب الشعر والنثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، في فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جُمع الشعر الذي جاء في مدحها لأرنبى على ديوان كبير في هذا الباب .

فقد قال الشعراء في مدح همدان على شدة بردها وزمهريرها ، وقالوا في هراة لخصبها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا في بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس في الموصل وحلب ، وقال كشاجم في مدح مصر :

كأنها الجنة التي جمعت ما تشتهي الأعين والأنفيس

وقد اشتهر الصنوبرى بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها في قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسورها وساحاتها وميادينها وحرارتها ، مما عرضنا لبعضه في كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمي حلياً دا راً وأحمي من حمّاه
أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها
فاخزى يا حلب المدن يزد جاهك جاها
فلعمري إن تك المدن رناخاً كنت شاهاً

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رناخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فيرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكللها بالفواكه في أبهى المناظر :

صفت دُنْيَا دمشق لساكنيها فلست ترى بغير دمشق دُنْيَا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا في صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون في ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مداح . فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه في كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر في جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

* * *

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأتوا على ما رأوا في الوطن وغير الوطن ، فقال شوقي في مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .

ومن قوله في دمشق :

قَالَ الرَّفَاقِيُّ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا الْأَرْضُ دَارٌ لَهَا الْفَيْحَاءُ بُسْتَانُ
جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخَلْدِ رِضْوَانُ

فوصف مدخل دمشق والحمائل من يمين وشمال تحف بالوافد وتتلقاه فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ، وبردى يشق الطريق مسرعاً ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان في جنان الخلد ، ومن قوله في بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته
هو ذروة في الحسن غير مرومة وذرا البراعة والحجى بيروته

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنة من أجمل ما أبدع الله ، لأنه ذروة في الحسن ، وعاصمته رأس في البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك دن لبنان وأنشد في الثناء عليها قصيدة عامرة ، وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه في مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته

عانقها بهذه الأبيات :

حتى بَدَتْ حَلَبٌ حَسَنَاءَ لَابِسَةً ثَوْباً أَعْرَبَ بُوْشَى اللهُ مُزْدَانَا
تَمَثَّلَتْ لِي سُلْطَاناً وَقَلْعَتُهَا تَاجاً يَتِيهِ بِهِ عِزّاً وَسُلْطَانَا
تَحْكِي حَدَائِقُهَا حَفَّتْ مَنَازِلَهَا بَحْرًا سَحِيقَ الْمَدَى بِالسُّفُنِ مَلَانَا

ثم يصف المآذن في قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ،
وقلعته في قلبه كتاج يتيه على مفرق الحاضرة : شاهداً على العز والسلطان ،
ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله في القطرين أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً في الغرب ، وأنشد محمد عبد الغنى حسن
في مديح كثير من المدن الأوربية عرفها وأقام فيها . فعاج بالذكري إليها يملأ
الحنين نفسه : فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً في البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ،
كما مدح شعراء المهجر منبت عزهم ومولد عبقريتهم : وقد جرى قلمنا في عرض
قصائدهم لكتاب الوصف : فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن
المديح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء ، حين استطاعوا أن يتخيلوا هؤلاء
قريباً منهم يناجونهم كالأحياء : أو يتمثلوا الجماد يتكلم ويسمع . وقد
تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعيماً وراء الشهرة حيناً ،
أو طوافاً على أبواب الوجهاء في كسب المال . أو تعبيراً عن عاطفة دينية ، أو
إظهاراً لشعور التشيع ، أو مشاركة في السياسة ، أو ثناء على الأوطان ، وإشادة
بعامر البلدان .

١٩٩٢ / ٥٧٠٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3757-4	الترقيم الدولي

١ / ٩٢ / ١٥٨

طبع بطابع دار المعارف (ج.م.ع.)